ما لم تحكِه شهرزاد القبيلة

بهيليل فضيلة

بِسمِ الله الرّحمَنِ الرّحِيم

الطبعة الثانية.

رقم الإيداع: جانفي 2022م.

ISBN 978-2-493312-27-3

عنوان الكتاب: ما لم تحكه شهرزاد القبيلة.

اسم المؤلف: بهيليل فضيلة.

تصميم الغلاف: دليلة حسناوي.

لوحة الغلاف: فتيحة حمادي.

الناشر: دار النشر الأمير . Maison D'édition El Amir

المدير العام: حياة قاصدي.

صفحة الفايسبوك:الأمير El Amir

رقم هاتف /مكتب فرنسا: 0033 9 50 08 59 98

الإيميل: assoelamir@gmail.com

El Amir للنشر والتوزيع.

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب

EL AMIR
MAISON D'ÉDITION

Behilil Fadila

ما لم تحكه شهرزاد القبيلة

رواية قصيرة

بهيليل فضيلة

أبثُّ الشّوقَ مــن قلبٍ مُعَنّى		كسِيــرٍ بالمـآسي قـد تغــنـّى

تــغادرني وقلـــبي في احتراقٍ		وبعدك لم ينلْ مــا قدْ تمنّى

تغادرني ولم أكْحَــلْ عيوني		بنورك، أيــّها الماضي تـأنّى

فـودّعــني لعلّ القلبَ يرضـى		وداعَك أم وداعُك ما تسنّى؟

بولنوار عبد الرزاق

(1)

" الله يدخّلها بالربَح علينا...هاذي حمامة زايدة فينا.."

أولّ ما سمعتْ جمعة عندما وطأت قدماها عتبة بيت زوجها، وجوه مزيّنة، أزهار ملونة، أطفال كالدّمى، و نساء بكلّ ما يملكن و ما استعرن ، استعرضن أنوثتهن و هُنّ يرقصن في حلقة توسّطتْها جمعة بعد ذلك، لتَعُمّ رائحة بخورٍ صُنع خصّيصا للمناسبة و عود مكّة العَطِر الذي كان في هدوء يفني بقاياه مغروسا بإحدى شقوق باحة المنزل.

رقصتْ جميلة أخت العريس في أوّل مشهد استأنست له العروس و رقصت بعدها الحاضرات، بينما حماتها اكتفت بالجلوس على عتبة الباب تتفرّس وجه هذا الوافد الجديد إلى بيتها.

رأت ابنها مُقبلاً مع وفد من الرّجال ليبارك عروسه، وثبتْ كنخلة شامخة تَرشُّ من صحنٍ صغيرٍ وُرَيقات الحنّاء المغموسة في العطر، أعطته لإحدى قريباتها، ثم توسّطت الحلقة و هي

ترقص ممسكة يد ابنها، مزهوة، خصرها الممتلئ يهتزّ في حركة دائرية والمفاتيح المشدودة بالحزام تتحرّك هي الأخرى في انتظام مع ضربات الدّف و الترشاق وزغاريد نسوةٍ من وراء اللّحاف الفاصل بينهن و بين الرّجال، وَقفن.

لم تشاهد جمعة شيئاً من ذلك، كان البُرْنس الأبيض يغطّي كل جزء منها، حتى وجهها، اكتفت بالاستماع للدّف الذي كانت ضرباته تتردّد بصدرها و باستنشاق عطور رجالية امتزجت بروائح نسوة و بخور تصاعد نشوة في ذلك الليل المضيئة نجومه فرحاً وزهواً.

و إذ رُفعتْ موائد العشاء، سارعتْ نسوةُ المنزل بوضع كرسيّ العروس وسط باحة المنزل، عليه وسادة من حرير أبيض طُرّزت بخيط وَرْدي على شكل أغصان و أزهار صغيرة، لتدخل العروس في حُلّتها البيضاء كملاكٍ اخترَق نوره عيون الحاضرات فعضضْن على شفاههن و تمنَّين لو كان لهن بعض منه.

كانت أختُها تمسك بذراعها اليمين، و خالتُها على اليسار تزغرد تارة و تصلّي على النّبي أخرى، يتبعُها ابنها الصّغير مُتشبّثاً بطرف لباسها الزّاهي، في ذهول يمشي خلفها مبهوراً بوجوه

النّسوة اللواتي ارتدينَ الفرح مُردِّدات عند دخول العروس كلّ مرة بحلّة جديدة كأنّما تستعرض أنوثتها عليهن وهنّ في فرح وغيرة يرْمقنها، ثمّ بصوت واحد يُردّدن:

" الصّلاة و السّلام على سيدنا محمد

لا جاه إلا جاه سيدنا محمد

الله مع الجاه العالي "

لتعلو بعدها الزغاريد من كل زاوية بذلك المكان، والعروس تغدو و تروح كلّ مرّة بثوب من أثوابها جديد، فتُعَلِّق الحاضرات خلسة على تسريحة شعرها و نوع لباسها، وطريقة مشيها. و بآخر الليل تُختتم جلسة الاستعراض تلك أو كما يسمّونها "التبْراز"، تلبس العروس في ختامه مَنصورية بيضاء وُضع حزامها في طبق سعف ملئ بالحلويات والتّمر و قالب سكّر و فول سوداني، فيدخل حماها الصّغير رافعا الحزام من الطبق ليضعه بخصر العروس، تُكرِمُه بورقة نقدية كانت قد سحبتها من تلك التي جمعتْ في منزل والدها يوم مراسم الحِنّاء، شابكيْن يديهما، يراقصها كما هي العادة فتمدُّ له من الطّبق حفنة بيديها ليخرج

مسرعا – كأنّما - هاربا من عيون تلك النّسوة اللاّئي كن يرمقنه بفضول و بشغف أيضا.

وقفتْ قربها أمّها تحمل الطّبق، و جمعة بيديها تأخذ منه ناثرة ما حواه على النسوة، فترتفع الأيادي لالتقاط ما وصلت إليه أيديهن و ما سقط على الأرض من حلوى و فول سوداني وتَمر. لينفضّ المجلس بعد ذلك تاركا كلّ الأحلام وعذب الكلام يسبح في ليل صيفيّ لا يشبه لياليهم العادية.

.....

وضعت وفاء القلم و أغلقت بسرعة مذكّرتها اليومية ملتفتة صوب صديقتها حنان التي جاءت مسرعة ففتحت باب الغرفة ليُحدث إطاره ارتجاجا أفزع وفاء :

-"وفاء ...حصلنا عليها...أخيرا حصلنا عليها... لقد فزنا بالسّحب وسنذهب لبلاد سيدي منصور ..إلهي، كم هذا رائع".

لم تستوعب وفاء بعد، ضغطت بسبابتيها على أذنيها لتصدّق، رغم أنها انتظرت مثل حنان أن يتمّ اختيارهما في

القرعة المخصّصة للرّحلة التي تشرف عليها منظّمة طلابية بإقامتهم الجامعية، إلا أنها قالت:

-"أعيدي...لم أسمع...هل حقا سنكون ضمن طلاّب الرحلة؟".

حنان لم تترك لها الفرصة، كانت قد ارتمت عليها تقبّلها وتقول:

-"أقسم إنني قرأت اسمينا بالقائمة المعلّقة عند مدخل المطعم المركزي، وستذهب أيضا زميلتك سعيدة و فتيحة وحفيظة.. و...".

كان الخبر أشبه بتحقيق حلم راودهما منذ أن وطأت قدماهما أرض الحيّ السّعيد، التي لم يريا أبعد منها عن بلادهم الصّحراوية، من بلاد الصّمت قدمتا، البلاد التي تزخر بالكثير و لا يعلم عنها إلا القليل القليل، و لأراضي السّواحل ستنطلقان غدا ضمن الرحلة الطلابية.

لم يبق هناك ما يعوق سفر وفاء سوى ردّة فعل جدّها الذي كفلها بعد وفاة أمها السعدية ثم جدتها التي ربّتها.تحمّل جدّها مخلفات هذا اليتم التي ظهرت جلية على وفاء، لكنّها

تعرف أنّه لن يمانع لأنّ يتمها ذاك كان تأشيرة عبور للقبول. كانت أوّل فتاة تكمل دراستها في عائلتها؛ لأن الدّراسة اقتصرت على الفتيان فقط، أمّا الفتيات فالمنزل سيكفل لهن العيش تحت جناح رجل مهما كان و كيفما كان.

تقدّم اللّيل وغطّى الحيّ السعيد والدّنيا بظلامه الحالك، يكسر أصواتها التي صارت تخفت شيئا فشيئا عدا صوت السيّارات البعيدة القادم من الطريق الوطنية المحاذية للإقامة الجامعية، أو أصوات لشبّان يتحدّثون من الشّارع مع فتيات الإقامة ككلّ ليلة، يرقصون على أنغام أحزانهم وجراحاتهم، ثمّ ما تلبث أن تعبث القارورة الخضراء بعقولهم فيتمايلون كالأشباح على موسيقى أغاني الشّاب حسني الذي ظلّ اسمه ملحقا بكلمة "شاب" حتى بعد أن اغتيل على أيدي الإرهابيين المعادين لكلّ شيء، وأغاني نصرو والشّيخة الجنية وغيرهم، ليُختم المشهد كالعادة بتبادل الشّتائم والسّباب بينهم و بين فتيات الإقامة شبه العاريات، تتراقص أجسادهن من خلف نوافذ غرفهن اللاّمعة بالأضواء، وبفوضوية يسدل السّتار بعد مطاردة أولئك الشبّان من طرف الشّرطة فتختلط الأصوات

وتَفضح الفتيات و هن بغرفهن مكان اختباء هذا أو ذاك على الشّرفات و السطوح أو بين الأزقّة المظلمة لسكنات لم يكتمل إنجازها بعد .

كان أولئك الشبّان يرقصون على حافة الشّرفات كلّ ليلة والفتيات يزغردن ويبادلنهن الرّقص و المرح، ولا يطول الحال حتّى يتحوّل مكان الإقامة لما يشبه حلبة تراشق بالكلام و بالحجارة أيضا، فيرمون النّوافذ، ولا تسمع غير صوت تكسّر الزجاج في تتابع من نافذة هذه الغرفة أو تلك، ليأتي عبدقّا صباح اليوم الموالي يأخذ مقاس الزّجاج فيصلحه إلى حين انكساره من جديد.

وفاء كانت بعيدة جدا عن كلّ هذه الأجواء تتسلّى بفرحتها المؤقّتة لزيارة مدينة "سيدي منصور" بعدما كان الحزن قد غطّى جانبا كبيرا من حياتها برحيل خالتها نعيمة في حادث مرور هزّ مدينتها الصّامتة، كانت نعيمة أكثر من خالة، أختا وصديقة وكاتمة أسرار. تذكر لحظات فقدانها جيدا، قبل الحادث المشؤوم بيوم كانت وفاء قد اشتكت لنعيمة سوء معاملة زوجة عمها لها و كيف أنّها تتبرّم من مصاريف دراستها بالجامعة، غير أنّ نعيمة

لم تثر كعادتها على تصرفاتها و لا ناقشت الموضوع، اكتفت بأن قالت لها في هدوء تملأ فنجان وفاء:

-"وفاء، أنسب لك أن تبحثي عن وظيفة بالحيّ السعيد وتتزوّجي هناك، فهذه الأرض لا تستوعب أحلامك".

وفاء لم تقل شيئا، كلام نعيمة غريب بل و بعيد عن موضوعهما أيضا. اكتفت بأن حدّقت بفنجان قهوتها دون أن تمدّ يدها لحبة البسكويت المحشوة بكريمة الفانيلا التي تحب. كان الحديث بينهما متقطّعا، ظنّت وفاء أنّ هناك خلافا بين نعيمة وزوجها رغم أنّها ما كانت لتخفيه عنها، فلم تعلّق واستأذنت بالانصراف.و هي بعتبة الباب قالت نعيمة مبتسمة:

-" تزوّجيه من الحيّ السعيد، سيسعدك".

ابتسمت وفاء و خرجت تحمل في رأسها سؤالا بإلحاح طُرح: " كيف أتزوّجه من الحيّ السعيد؟ هل سأقف بباحة الجامعة مثلا و أسأل من يتزوّجني؟"، تخيّلت نفسها تقف بجامعة حيّ النصر وتصرخ بأعلى صوتها، ابتسمت و واصلت طريقها نحو منزل جدها.

صباح اليوم التالي استيقظت المدينة على وقع حادث رهيب، انقلاب حافلة لنقل المسافرين بعد اصطدامها بشاحنة تحمل رقم إحدى ولايات الشرق، كان يوما أسودا خرجت فيه النّساء حافيات إلى الشّارع، أمهات و زوجات وأخوات لمن سافروا دون رجعة، أما رجال المدينة كلّهم ركضوا مكبّرين لمكان الحادث الذي لم يبعد أكثر من كيلومترين عن المدينة، خرج تلاميذ المدارس وعلا النّحيب والصياح. لا تزال وفاء تذكر كيف جثت على ركبتيها جارتهم سهلية، وكيف سقطت و هي تحاول تخطّي الرّصيف، كان ابنها قد سافر كعادته لمقرّ عمله بإحدى مستشفيات الولاية وحين علمت بالحادث ذهب عقلها، و لما لم تطاوعها ركبتاها جلست تندب خدّها تارة وأخرى تلطمه والحاج أحمد جارها يطلب منها الاستغفار و العودة إلى منزلها.

نصف ساعة مضت حاول فيها الرّجال إخراج أحد الجرحى بعدما سمعوا له أنينا يشقّق الحجر فلم يفلحوا، كان بعيدا عن النّافذة بمسافة كرسيين و لا صوت بالحافلة عدا صوته، حين وصلت سيارات الإسعاف كان قد ردّد الشّهادتين في جوّ مهيب ذات صبيحة شتوية من شهر فبراير. كانت نعيمة

تمسك برضيعها الذي توفي هو الآخر و لا أثر لأيّ خدش بجمسه أو أثر اصطدام، عدا أنّ أمه قد ضمّته بشدة لصدرها حدّ الاختناق، و زوجها هو الآخر يضمّهما معا لصدره قبل أن يخترق أحد الأعمدة الحديدية خلفية رأسه فيحدث فيها ثقبا عميقا وتجاوزته صفيحة حديدية لزوجته على جبهتها.

لا تزال تلك التفاصيل تسكن ذاكرة وفاء حتى بعد مرور سنتين على تلك الحادثة و لا يزال سكّان المدينة يردّدونها كلّما ذكروا واحدا منهم. أثبتت التّحقيقات فيما بعد أنّ عمال الأشغال العمومية الذّين كانوا يشتغلون بتلك الطريق كانوا قد نسوا وضع لافتة التّحذير بوجود أشغال بالطريق، هو الأمر الذي لم يعرفه السّائق القادم من الشرق.

ما حزّ في نفس وفاء كما أهالي الضحايا هو أنّ أحدا منهم لم ينجُ ليحكي لهم ما قالوا و ما فعلوا قبل أن يغادروا الدنيا لمثواهم الأخير. كانوا يقولون "رحلوا و أخذوا أحاديثهم و سرّهم معهم".

صعدت وفاء إلى غرفتها بالطّابق الخامس منهكة متعبة بعد رحلة طويلة وقفتها أمام طابور طويل بمطعم الإقامة

الجامعية، عزاؤها الوحيد هناك تلك الأغاني التي كانت فتيات بريزينة تردّدنها حتى تدفعن بها ملل الطّابور الطويل، وكانت وفاء تحبّ تلك الأغنية التي يرددنها على لسان نسوة يمدحن بطولات الجنود أيام الحرب قائلات:

و يا محايني و ما صرا في د الواد كسال

واش يقدك فالحساب ذا طايح ذا مجروح ويامحايني

و يا محايني و هودي يا ذ النو لهيه و ربي للصحراء

شحال عطشوا فيها جنود و يا محايني

و قالوا ما طقناش نضربوا فالصّهد الحُمّان ويا محايني

و لا تزيّرش عليه الكُورْدة يديه محررين ما شافوش العذاب و يامحايني

و سايس عليهم يا خنزير و ياك يديه محررين ما شافوش العذاب و يامحايني

و هودي ياذ النو لهيه.... و ربي للصحراء

شحال عطشوا فيها جنود و يا محايني

غير أنّ لحضور خضرة بالطابور شكلا آخر ورهبة أخرى، تخرص أفواه جميع الحاضرات والحاضرين كلّما قالت[1] خضرة ترثي أمها التي توفيت قبل شهر من دخولها الجامعة، كان كلامها يفتّت الحجر، تأخذ الأكل في علب بعد أن تفرغه من سينيته لأجل الفتيات اللواتي يشاركنها الغرفة. كلما سمعتها وفاء تخرج من الطابور باكية حزينة وقد هاجت عليها ذكرى والدتها و جدّتها ونعيمة خالتها.

في صبيحة اليوم الموالي كانت وفاء و حنان آخر من سمع بخبر إقلاع الحافلة الطلاّبية قبل الموعد الذي حُدّد لها بالأمس، حزنت حنان و ذرفت وفاء دمعة حقد على المنظّمة التي أخلفت بالموعد و ضاع معها الحلم، حلم لقاء رفيق درب الطّفولة الذي أبعده عنها رحليهم لمدينة أخرى. كانت ستحج إلى تلك الأرض خاشعة كأنها ستزور ولي، توقد شموع اللقاء وتنذر بأن تعود كل سنة في مثل اليوم الذي ستتزوج فيه كريم.

[1] من القول، معروف عند سكان ولاية البيض وهو عبارة عن نوع من الغناء بالمنطقة.

اهتز هاتف وفاء بيدها، رمقت إلحاحه بالاتّصال فلم ترد، حملت حنان هاتفها و ردّت مكانها:

-" ألو..أنا حنان...وفاء تقف كالصّنم بقربي بعدما غادرت حافلة الطلاّب دوننا".

على الضفة الأخرى كان كريم يردّ بارتباك:

-" أهلا حنان، أين أنتما الآن؟".

و قبل أن تجيب كان الهاتف بيد وفاء التي أخذته من أذن حنان و ابتعدت قليلا تمسح دمعها:

-" نعم كريم، وصلنا لمكان تجمّع طلاّب الرحلة فوجدناهم غادروا قبل الموعد بساعة تقريبا، سمعت من إحداهن أنّهم أخذوا أيضا أصدقاءهم الذين لم تشملهم القرعة و غادروا ولا..."

قاطعها كريم:

-"لا تعودا إلى الإقامة، اتّجهي و حنان إلى المحطّة وسأنتظركما حالما تصلان".

-"و لكن كريم...كـ..يـ..ف...؟".

-"لا تسألي كثيرا اتّجها إلى المحطّة ، استقلا الحافلة التي تقلّكما إلى مدينة الأمير عبد القادر و هناك تجدان حافلة سيدي منصور، لا تضيّعي الفرصة، وفاء أرجوك ".

حنان رحّبت بالفكرة دون تردّد، راحت تجرّ الحقيبة باتّجاه نهاية الرّصيف لتشير إلى سيّارة أجرة توقّفت مباشرة:

-" لامارين...أخي".

لم يردّ .. أومأ بالموافقة .. وانطلقت السيارة نحو المحطّة تلتفّ باتجاه الشوارع المؤدية إليها. كانت المحطّة الموجودة بمحاذاة لامارين _حتى بدت كأنّها جزء منها_ مكتظّة بالمسافرين إلى كلّ اتجاه: إلى المدن الشرقية، المدن الساحلية و حتى الصحراوية منها. صياح السائقين اختلط بأصوات الباعة، لم يكن المكان محطة فعلا، كان سوقا يومية تتوسّط المدينة وبمحاذاتها تتوقّف الحافلات، وقفت حنان تحرس الحقيبتين بينما اندفعت وفاء مع جمع المسافرين لتفتكّ تذكرتي سفر وتحجز بذلك مقعدين، بصعوبة جلست على كرسيّ قرب النافذة

واضعة بالكرسي المجاور حقيبة يدها وهي تومئ لحنان بأن تسلّم الحقيبتين للقابض و تصعد.

و لأن لا حافلة ستتّجه مباشرة لمدينة سيدي منصور فقد كان عليهما أن تتنقلا إلى مدينة الأمير عبد القادر ثمّ تواصلان الطريق نحو سيدي منصور. بعض الرحلات رغم تعبها و مشقتها و طول مسافاتها نحبّها؛ لأنّها ستوصلنا إلى من نحبّ عكس تلك التي نسافر فيها بلا رغبة فنضجر و نتعب وتطول بنا المسافة على قصرها.

وفاء تتلقف بكلتا كفيها ثمار الفرح، تنظر إلى شاشة هاتفها كلّما اهتزّ بين يديها، فتبتسم حين تقرأ اسم " كريم"، كان بواجهة البحر، على الشاطئ يرقب قدوم وفاء حاملة رمال الصحراء و عبق إكليل الجبل ورائحة بخور لترسمها لوحة شوق تدفئها بمرسم كريم بعد غياب دام لأكثر من سبع سنوات عجاف.

ها هي المدينة تشرق بسمائها التي لوّنتها غيمات متناثرة في حياء اتّخذت شكل ريشة كما قرأت عنها بكتب الطبيعة أيّام متوسّطة الخوارزمي، و بنوارسها المحلّقة هنا وهناك، وتلك

المباني الشامخة و الطرقات النّظيفة والأرض الخضراء. ظلّت تفرك عينيها مرارا لتعيد النظر إلى أن هزّتها حنان:

-" هل اتّصلت بكريم؟، أخبريه أنّنا وصلنا."

وفاء لم تسحب عينيها عن النافذة، أجابت مبتسمة إنّه بالمحطّة منذ ساعة تقريبا ينتظر طائر الحجل قادما من الجنوب محمّلا بكل عطش الدّنيا لزيارة البحر كما قال. دقائق والحافلة تستقرّ أخيرا بالمحطة لينزل الركاب و يقف كريم قرب نافذتها ينقر خفيفا بابتسامة، فنزلت. لم يكن بمفرده، كان صالح يبعد خطوات عنه تقدّم هو الآخر مصافحا مرحّبا بعد أن حمل من يد حنان الحقيبة و كريم سبقه رفقة وفاء باتّجاه أقرب بيتزيريا بالمحطّة.

كانت الوجهة الموالية هي الإقامة الجامعية أين ستمكث وفاء و حنان عند شهيناز خطيبة صالح، ودّعهما كريم عند البوّابة و قبل أن تدخلا وجد كريم رشيدة فطلب منها أن تدلّهما على غرفة شهيناز. وصلتا الغرفة فاستقبلتهما فتاة نحيلة لا تبدو عليها أية ملامح، نادتها من خلفها فاطمة:

-" أينك منصورية؟ من بالباب؟".

دخلت حنان أولا و وفاء خلفها متعثّرة بحقيبتها لا تكاد تصدّق أنها بمدينة الأحلام، مدينة سيدي منصور. رحّبت فاطمة بهما تحمل عن وفاء الحقيبة وتنادي على نادية التي كانت منشغلة بهاتفها في الغرفة المجاورة. شهيناز هي الأخرى جاءت مسرعة من الجامعة بعدما علمت من صالح وصولهما. دخلت شهيناز بسرعة تلتقط أنفاسها و هي تسأل عن ضيفتيها:

-" أيـ..ن وفـ...اء و حـ..نان؟".

ضحكت مفيدة التي التحقت بهن بعد مجيئها من الجامعة، كانت الفتيات تقمن بإعداد الطاولة من أجل احتساء القهوة بينما وفاء و حنان تتناولان الغداء في وقت مقارب للعصر. بعدها وضعت القهوة و احتلت وسط الجلسة لتبدأ أحاديثهن الخجولة امتزجت بزخات المطر التي كانت بالخارج تغسل المدينة وتتساقط على مسمع وفاء كرذاذ حب ملأ عالمها الصغير. تبادلن الحديث من الطرائف إلى الحكايات الشعبية إلى تقاليد كل منطقة، و لم تنته تلك الأحاديث إلا بأذان المغرب. انسحبت وفاء لتستريح قليلا بينما بقيت حنان رفقة الفتيات بروحها المرحة

تنكّت و قد استظرفنها، و بين الحين و الحين تستفيق من هجعتها على أصوات ضحكات فاطمة التي لم تستطع كتمها. أخيرا توجّهت نحو حقيبتها، سحبت مذكرتها تطالع آخر سطر خطّته من روايتها ثمّ واصلت الكتابة على وقع زخات المطر.

(2)

كان إبريق القهوة الصحراوية يغلي بغضب على الموقد وجمعة على مهل تُعد السينية بعد أن بدأت تعتاد على أماكن الأواني و الأغراض المنزلية الأخرى، حماتها يوما عن يوم تسحب يدها عن المطبخ إلى أن سلّمته لكنّتها بعدما رأتها قد اعتادت على ذلك.

كانت تقنعها قولا و فعلا أنّ المنزل لها و على كل وافد أن يتّبع الأوامر أو يتّبع طريق الباب، و في سرّها تأسّفت على ابنة أختها التي عرضتها على ابنها زوجة فرفض.

هي أيضا كانت في زمن مضى كنّة، ذاقت المرّ على يد حماتها مهريّة، تذكرت و هي أمام سينية القهوة ما حلّ بها يوم مكثت أسبوعا كاملا عند أهلها كان خُصّص لفتل طعام احتفالية الوعدة، ذهبت تحمل رضيعها بعدما أذن لها زوجها، لتوافيها حماتها اليوم الموالي حاملة إليها رزمة صغيرة جمعت بها ملابس حفيدها قائلة لها أنّ ابنها لا يرغب بعودتها، ولم تخبرها الحجّة. دُهشت، لم تجد سببا لذلك، بالأمس فقط بمحبة وعلى حياء و شوق ودّعها،كيف اليوم سيطلّقها ؟.

رمت على جسدها اللّحاف حاملة ابنها، في غضب أمرت حماتها بالنهوض و العودة إلى بيتها، ارتبكت حماتها لم تتخيّل ردّة فعلها، قامت على عجل تلفّ طرف خمارها على نصف وجهها بحيث يغطي أنفها وشفتيها و جزءا من خديها، واللحاف على جسدها و هي تقول:

-"استهدي بالله يا ابنتي".

لم تنطق بكلمة، أنفاسها تقطّعت من تحت النّقاب، ابنها بيدها خلفها يركض باكيا و حماتها على جمر الندم تكتوي بلا صوت، تدرك أنها قالت ذلك دون استشارة زوجها الميلود و أنّه سيغضب أيّما غضب إن علم، استوقفتها عند عتبة الباب:

-"لا تخبري الحاج الميلود ".

صليحة تعلم أنه تدبير من حماتها، لم تقل و لا كلمة، و لم تهتم لصراخ ابنها الذي علا بعدما صفقت الباب خلفها بعنف، ملقية اللّحاف بسلك الغسيل، متجهة إلى غرفتها بينما حماتها قد احتضنت حفيدها تعده بحبة حلوى افتكّتها من ربطة أسفل

خمارها، سكت و الدمع بخده قد اتّحد بسائل أنفه فشان حسنه البريء.

و إذ دخل زوجها استقبلته بسؤال حيّره فلم يجد له جوابا غير الصّمت:

-"ماذا فعلتُ كي تطلقني؟".

قالت ذلك تنتظر ردا بعثره مهرّبا نظره للجدران كأنّما بحث عن جواب يمسح به دمعها الذي شقّ قلبه شقا فلم يجد غير الصمت ملاذا.

في المساء بعثت إليها والدتها أخاها الصغير يستفسرها الأمر، فأسرّت إليه ليُبكر في اليوم الموالي حاملا الوصيّة من أمّه بأن تدقّ المِخْيَط[1] بأرضية غرفتها كي تُدقّ أوتادها هناك فلا تغادر المكان، و أن تحضر لها عظما كان زوجها قد أكل لحمه مرفوقا بقطعة من ملابسه الداخلية دون غسيل، وحفنة رمل من خطوته عند الباب، ففعلت.

[1] المخيط: إبرة غليظة تستعمل لخياطة ما سمُك من قماش أو جلد.

لم تجد صعوبة في الحصول على حفنة الرمل من خطوته عند خروجه باكرا و لا في دقّ المخيط الذي غيّبته بزاوية غرفتها أو قطعة من ملابسه الداخلية، وحده الحصول على عظم أرهقها فبعثت لوالدتها تبلّغها أنهم لم يتناولوا لحما منذ مدة و قد استعصى عليها الأمر، بينما والدتها استسهلته، أرسلت ابنها يدعوه للعشاء، كسكس بسَبع خُضار و عليه اللّحم الذّي يفي بالغرض.

و تغير منذ ذلك اليوم أحمد.

تذكّرتْ كيف كانت حماتها تحرمها هي و زوجات أبنائها الأخريات من ملذات الأكل في المناسبات، كُن يسرقن اللّحم، كلّ واحدة تأخذ نصيبا تحزمه في قُطْنِيَتِها[1] ثمّ تسدل اللّباس الفوقي و كأنها لا تحمل شيئا، كانت الطريقة الوحيدة التي يستطعن بها تذوق اللحم، صليحة لم تنس كل ذلك لطالما حدّثت بناتها عن معاناتها و آلامها قبل أن تموت بمرض السّل مهرية و تطلب على فراش الموت مسامحتها.

[1] عباءة داخلية ترتديها المرأة أسفل اللباس الخارجي ، تصنع عادة من القطن.

تنهّدت، كانت كنّتها قد جلست بجوارها تفرغ بفنجانيهما قهوة عَبِقة بالشِّيح والقرفة والفلفل الأسود والزنجبيل. ثم من حين إلى حين تُقلّب الخبز الذي كان ينضج بهدوء على النار.

(3)

خرجت جمعة من غرفتها ترتدي كلّ الفرح، إنّه اليوم الذّي سترى فيه أهلها بعد فترة دامت أكثر من أربعة أشهر ، يوم "المكَبْ"[1]، الزيارة الأولى للعروس بعد عرسها إلى منزل والدها، يتطلّب ذلك مراسم خاصة يحضّر لها أهل العريس كما جرت العادة. و لسذاجتها ظنّت أنّها و في يوم كهذا معفاة من تحضير الغداء، فأخواته بالمنزل و هي بالكاد يلزمها الوقت للاستعداد حتى فاجأتها حماتها تقتحم عليها الغرفة دون إذن:

- " هل عليّ أن أكرّر كلّ مرّة أنّ الطبخ مسؤوليتك؟ الغداء ينتظر".

- " لكن عمّتي، أنا....".

بغضب بعثرت أمامها سلّة الخضر التي أحضرها زوجها الحاج أحمد و قالت:

- " العمى، لست عمّة أحد".

[1] أول زيارة للعروس إلى بيت أهلها بعد زواجها.

بلعت ريقها، عَبرة سكنت الحلق، و دمع كالجمر على خدّها احترق، في لحظة تذكّرت والديها، أخواتها ،إخوتها، ملامحهم، كلامهم الذي لا يشبه أبدا كلام هذه العجوز، على عجل جمعت الخضر المبعثرة على الأرض و كلّ عبارات السّخط تكتم حزنها، اكتفت بأن قالت في سرها"حسبي الله و نعم الوكيل"، رادّة باب الغرفة في هدوء، تاركة ملابسها وهداياها لأهلها ملقاة على الأرض.

غير أنّ حماتها لم تكتف بهذا القدر، وقفت عند بهو المنزل، اعترضت طريقها:

-" لن نذهب اليوم عند أهلك، أنا متعبة وسأخبر الحاج أحمد بذلك، لست مستعدّة للسّفر مئات الكيلومترات، لا بارك الله في ابني، لم يجد غير بلادكم يتزوّج من بناتها".

كان الأمر مدبّرا إذا، لم تحتمل جمعة أكثر، تراكمات شهور من الشّوق ومن تحمّل ما رأته مذلّة وإهانة كانت كفيلة بأن تجعلها تنطق لأوّل مرّة في وجه حماتها:

- "أنا لن أصبر أكثر، سأذهب إلى منزل أهلي بحضورك أو بغيابك".

لم تصدّق العجوز أنّ كنّتها قد نطقت أخيرا، دوما كانت كلّما عاتبتها على أمر من أمور المنزل لا تسمع لها حسّا غير الطّاعة، بدا لها أنّها تتحدّاها لأوّل مرة و أنها تطاولت عليها، لم تشعر جمعة إلاّ و حماتها ترمي جسدها بثقله على الأرض فاكّة ربطة الفولارة الخضراء، تلطم خدّها و ضفيرتها من اليسار إلى اليمين تغدو و تروح، صارخة مستنجدة في مشهد لم تتوقّعه أبدا جمعة و لم تر مثله من قبل.

-" لقد تطاولت عليّ زوجة ابني، ما الذي بقي من كرامتي؟ لم ينقصها إلاّ أن تضربني بنت الحلّوف[1]، ألم تجد غيرها يا ولدي لتدخلها هذا المنزل الذّي بناه الأسياد؟ ".

أمام صراخ العجوز و بكاء بناتها اللّواتي أحطن بها، ومع دهشة جمعة لابتكار المشهد، كان زوجها قد وصل مسرعا بعدما سمع صراخ والدته من الشّارع، لم يشعر إلا و كفّه ترتسم على خدّها في حركة ساد بعدها صمت رهيب.

[1] صغير الخنزير.

" كيف كُنتِ يا جمعة و كيف أصبحتِ"، أسرّتها في نفسها، يومٌ كان يفترض أن تفرح فيه، يوم عدّت الأيام و الليالي لأجله، صار الوجع يذبح فيه بلا سبب.

مرضت جمعة، لازمت الفراش، لم يكن مشكوكا فيه أن مرضها كان بسبب ذلك اليوم المشؤوم، تظاهرت العجوز أمام ولدها بالاهتمام، قائلة:

-"يبدو أنّها اشتاقت أهلها، قل لوالدك يشتري مصاريف 'المُكَبْ' و نسافر يوم غد بعد صلاة الفجر".

تحاملت جمعة على نفسها، ابتلعت حزنها وراحت تكمل جمع حقيبتها، لا تدري أيّ مشاعر تنتابها، و أيّ دمع هو هذا الذّي بلا حياء يحرقها، فرحا لرؤيتها أهلها، أم حزنا على الحال الذي آلت إليها.

جمعت كلّ ما يخصّها و في قلبها إصرار على عدم العودة مجدّدا،"مْكَب" و "طلاق" مرّة واحدة، لم يسبق أن حدث هذا بين أسر قبيلتها، ستكون الفاجعة ووصمة العار، وتغدو حديث

الصّغار و الكبار في بلدتهم " جمعة طُلّقت يوم مكبّها "، و ستحاك حولها القصص و الروايات.

رغم ذلك استأنست كونها لم ترجع إلى أهلها ليلة عرسها مغطّاة بكيس فارغ من رأسها إلى أسفل بطنها مثلما حدث لابنة عمّة والدها خولة يوم دخل عليها زوجها ليلة زفافها ليخرج بعد دقائق و قد غطّاها بكيس فارغ بعدما اكتشف أنها غير عذراء، حملها أهلها بحياء مطأطئ الرؤوس كأنّما قيامة الدنيا قد قامت عليهم و هي من تحت الكيس تصدر أصواتا خالطها البكاء و القسم أن لا أحد قبل زوجها لمس شعرة منها، و لكن من يسمع؟ فوضعُ الكيس على رأسها قتل كلّ ذرّة كرامة لها و لعائلتها و ما عاد لهم بتلك الدّيار مقام و لا صوت. كانت تلك العادة تتكرّر كلّما أخفق زوج في معاشرة زوجته ليلة زفافها متّهما إيّاها بالخطيئة و لو كذبا لينقذ رجولته .

المسكينة، لم يسعفها القدر حتى لإتمام باقي مراسم الزّفاف، لم تخرج مثل العرائس إلى السّاقية مثلما خرجت أختها في اليوم الثّاني من زفافها تتصدّر موكبا نسائيا قادها إلى الساقية المجاورة، حاملة جرّة ملأتها من مياهها الجارية قبل طلوع الفجر،

بها فتلت الكسكس أمام نظر الحاضرات، و طحنت على الرحى قمحا بعدما جلست، رجلها اليمنى مربوطة بحبل نهايته عند حماتها، ما إن حرّكت يد الرحى حتى علت الزغاريد وارتفعت حناجر النسوة بالغناء، من حين إلى حين تقوم منهن امرأة باتجاه العروس لتضع بحجرها مبلغا ماليا مباركة متمنية لها حياة زوجية سعيدة و ذرية صالحة بجاه النبي المصطفى.

أن تعود جمعة بعيدا عن تلك الفضيحة أهون من عودتها مطلّقة يوم مكبّها، كان ذلك عزاء لها.

.....

طرق خفيف على الباب الذّي كان شبه مفتوح، وضعت وفاء القلم تغلق مذكّرتها بحبّ، شهيناز لم تترك لها فرصة شرح ما تفعل قالت:

-"دعيك من الكتابة وجوّ المذكّرات، غدا سنخرج معا أنا و أنت رفقة كريم و صالح، كلّمني خطيبي قبل قليل و طرح عليّ فكرة زيارة البحر، ما رأيك؟".

أربكتها كلمة البحر، لا بحر بمدينتها و لا شاطئ، كيف سيكون شكله؟ مساحته؟ لونه؟، قالت تزيح عنها البطّانية لتعدل من جلستها بطرف السّرير:

-" سيكون ذلك رائعا، لكن هل يعلم كريم؟".

-"لا تقلقي، دبّرا معا لمصيدة الحب". ضاحكة بمكر أنثويّ فضحكت وفاء تتبعها إلى الغرفة التي ربّعت الفتيات بوسطها على مائدة العشاء.

في الصباح ذهبت وفاء و حنان رفقة شهيناز مع أوّل حافلة جامعية لتصلن باكرا إلى المكتبة، فوفاء تريد الاطّلاع على قائمة الكتب الموجودة بمكتبة الجامعة، أرسلت رسالة لكريم قبل خروجها من الإقامة لتجده يجلس قرب بوّابة المكتبة بيده فنجان قهوة و محفظة أوراق صغيرة، حياهن بعد أن سحب إليه وفاء ليصعدا بالاتجاه الآخر، كانت المكتبة واسعة جدا تنقسم حسب التخصّصات، اتجها إلى قائمة الكتب فانبهرت لكميتها و للثريا الضخمة التي علّقت بالسّقف تبعث أضواء بيضاء أنارت القاعات على اتساعها.

تركها تعبث مع الأوراق، تسجّل عناوين كتب قد تحتاجها، أخرج دفترا صغيرا زيّن بأول صفحاته اسمها بالخطّ الكوفي. أهداه لها رفقة منديل مرقومة حواشيه بقلوب صغيرة. ضمّته لأنفها باحثة عن أثر عطره فيه و راحت تجمع أشياءها لبداية رحلة أخرى. خرجا من البوّابة الخلفية للجامعة، في حين بقيت حنان رفقة الكتب تدلّها مفيدة، أمّا نعيمة فتوجهت وشهيناز إلى مصلحة البريد.

ظلّ كريم طول الوقت يتجوّل في شوارع المدينة، يخبرها بأسماء رموزها و أماكنها، و لم تركز على شيء تركيزها في تمثال عبد القادر علّولة، الممثّل و المخرج الذي قُتل غدرا في عزّ عطائه، لم تستطع أن ترى شيئا بعده ممّا كان يعرضه عليها كريم. في بلادي يُغتال الفنّ و الإبداع...و تنتشر سياسات الشّيتة بكلّ الطرق. كان يمسك بيدها و هما يعبران الشارع الرئيسي، يعلم أنها آتية من أرض لا علاقة لها بازدحام السيارات واكتظاظ شوارعها، أرادت أناملها التملص من يده لكنها عبثا تحاول، أمسكها بخوف وبحب أيضا، لن يجازف في سبيل خجلها، لا وقت للخجل في مدينة تفتح للحبّ ألف شارع و شراع.

استقلا سيارة أجرة أوصلتهما إلى محلّ أكل خفيف توّجَهُ صاحبه باسم " كارانتيكا"، صالح كان سبقهما إلى المحلّ، و على المائدة مازح صالح كريم:

-" ماذا عن حبّي، ألن يأكل الكرنتيكا معنا؟".

ردّ كريم بعد أن أضاف الحار يقدّمه لوفاء:

-" حُبُّك لا يحبّ الحار، قم بدعوته على كورني مثلّجات".

خرج الثلاثة تتوسّطهم وفاء باتّجاه الإقامة الجامعية لاصطحاب شهيناز، يمشون في شوارع لا تنتمي منمنماتها لهم ولا تشبههم، لكنّها استطاعت أن تضمّ حبّهم و أشواقهم.

الساعة تقارب الواحدة و الربع زوالا، صعدت وفاء الغرفة لتنزل بصحبة شهيناز التي تأخرت بترتيب نفسها، مشوا مثنى مثنى كريم و وفاء بالمقدّمة، خلفهما صالح وشهيناز، ينفرد كلّ ثنائيّ بحديثه الخاص، زاده بهاء زخات المطر التي تلاعبت بها الرياح من اليمين إلى الشمال، لطالما تمنّت ذلك وفاء.

-" أين نتّجه؟".سألت وفاء.

-"نتجوّل بشوارع المدينة، متأكد ستحبينها.

-"لكن...ماذا عن البحر؟".

-" سنذهب غدا رفقة منظمة طلابية تشرف على رحلة للشاطئ"، قال كريم والتفت إلى الثنائي الذي بدا أنّه توقّف بإحدى واجهات محلاّت الورود.

-" هااي، أسرعا، سنختم الجولة بزيارة الحديقة العامة".

لم تمض أكثر من عشر دقائق حتى كانت بوابة الحديقة ترسم جمالها بعيون وفاء، أشجار.....تصطفّ داخل مساحات اتّخذت أشكالا هندسيّة مختلة، دوائر، مربعات، معينات، وبالجهة المقابلة للبوابة كراسي إسمنتية صمّمت على شكل أنصاف أقواس مشدودة بأعمدة حديدية إلى الأرض.

لاحظت وفاء أن الحديقة لم تكن عامة كما يدعو اسمها بلافتة البوّابة، كانت خاصة بالعشّاق الذين توزّعوا في كل مكان، تحت الأشجار، على الكراسي، على البساط الأخضر.أربكها هذا الاكتشاف و لم يُخْفه وجهها و ارتجاف أناملها. جلسا على أحد الكراسي، بدت متآكلة الأطراف، وبالكرسي المجاور جلس صالح

وشهيناز. و كأنما لتساند الطبيعة وفاء انقشعت الغيوم لتفسح مجالا لأشعة الشمس الدافئة، فراحت خيوطها تزورهم خجلا من خلف الأشجار ثم تنعكس على الأرض المغتسلة بالمطر، قالت وفاء و هي سعيدة جدا بهذا الجو الذي لطالما تمنّته بوجود كريم:

-" مطر يَذوب الصّحوُ منه و بَعده .....صَحوٌ يكاد من النّظارة يُمطر".

-" تقولين شعراً؟".

-"بل استعرته". قالت ذلك و هرّبت نظرها باتجاه النوارس المحلقة في السماء دون أن تغفل مشاكسات صالح وشهيناز وصوت ضحكهما يصل أسماعها.

كان كريم يعرض عليها آخر سيناريو كتبه من أجل مناقشته بمذكّرة التخرّج، طلب منها أن تعينه بالتّدقيق اللّغوي، راح يقرأ و هي باهتمام تصغي إليه، و تشير عليه أن يغير أو يعيد النظر في الكلمات التي تراها بحاجة لضبط. وبدون مقدّمات وقف أمامهم رجل ملتحٍ احمرّت عيناه من الغضب يسبّ و يشتم ويلعن و لم يتوقف حتى بعد خروجهم من ذلك العالم الخيالي

الجميل، لقد عادوا إلى الواقع الذي هربوا منه تلفّهم الخيبة والحزن و يغطي كريم الخجل من وفاء التي لا تعرف البلاد، وفاء التي جاءت من أرض صحراوية قاحلة لا يعرف أهلها الاغتسال بماء البحر ولا طائر النورس الذي يحلّق بالشواطئ. أرادها أن تسعد بالزيارة و لم يتوقع أبدا أن أمرا كهذا سيحدث.

كان قلق رفض أهلها تزويجها له إن علموا بقبيلته المعادية لقبيلتها لا يغادر فكره، ظلّ يحاول أن يشرح لوفاء أن عليهما إقناع أهليهما بعدم جدوى تلك العداوة و أنّه لا وجود لقانون يمنع زواجهما، فالزواج وحده من يضمن لهما كرامتهما و لن تمتدّ ألسنة الغير إليهما. لكنها كانت تدرك أنّ ذلك لن يكون بالأمر الهيّن وأنه سيجلب عداء بين عائلتها وأهل قبيلتها إن حدث و تزوجا، لذلك ظلّت صامتة لا ترفض و لا تؤيد. كانت تردّد في سرّها قول نزار:

"في المدن المالحة الخائفة

المعقّدة

يشعر أهل العشق بالعار

و بالهوان

أمّا أنا فحين أهوى امرأة

تأخذني هِزّة عنفوان"

انصرف الأربعة من الحديقة حاقدين على ذلك الرجل الذي ترك لهم ذكرى سيئة و أهانهم أمام الجميع، رغم أنّ الجميع كان بنفس المقام، لكن ما إن ابتعدوا عن المكان حتى انفجروا ضاحكين و تحوّل الموقف إلى ما يشبه النكتة تذكروها كلما مرّ أمامهم رجل طويل اللحية و القامة كالذي طردهم.

انحدرت الشّمس نحو المغيب مودّعة في صمت كلّ من عانقته خيوطها كأمّ حنون، وصلوا إلى الإقامة الجامعية، ودعت وفاء و شهيناز كريم و صالح على أمل أن يلتقوا برحلة الغد وصعدتا إلى الغرفة تنهكهما السّلالم المتآكلة حينا والمبللة بالمياه المتسخة حينا آخر. كانت رائحة القهوة تسبح في الفضاء فتدغدغ أنفيهما لتصل الإشارة إلى المعدة فتعزف قطعة موسيقية ضحكت عليها وفاء و شهيناز حين سمعتاها.

لم تخب حاسّة الشمّ لديهما فقد كانت الفتيات بانتظارهما لشرب القهوة معا، وما إن دخلتا حتى انهالت عليهما الأسئلة:

-"لقد تأخرتما كثيرا، هل كل هذا كان حبا؟" قالت حنان وهي تجلس قرب وفاء محاولة فتح الكيس الذي بيد وفاء:

-" أرني ماذا اشتريتِ لي؟".

-"قلقنا عليكما، هل استمتعتما بالنزهة؟ كيف كانت؟". قالت فاطمة، لتشارك نعيمة هي الأخرى قائلة بعد أن سخّنت القهوة، تضع الفناجين على الطاولة:

-" لقد رفضتما ارتداء المعاطف، لاشكّ أنّ المطر قد نال منكما، أم أن الحبيبين تخليا لكما عن معطفيهما؟".

ضحكت الفتيات و جلسن تتبادلن الطرائف عن النزهة، تستنطقن الفتاتين لتخبراهما عن الأماكن التي ذهبوا إليها و ما قالوا و فعلوا. دخلت زهية، صديقتهم التي كانت تتحدّث هاتفيا مع وفاء كلّما تعذر الاتصال بشهيناز، شاركت الفتيات احتساء القهوة و الأحاديث الغرامية الشيقة، لكأنّ هذا النوع من

الأحاديث هو الهواية الأولى بلا منازع عند المرأة، تقدّسه بأن تهيئ له جوا خاصا و تتلهّف لسماع المزيد دون شبع.

كلّهن كن جالسات حول الطاولة المزيّنة بالحلويات وفناجين القهوة عدا منصورية، الفتاة التي حيّر صمتها وفاء، لابد و أنّ وراءها قصة حزينة، كانت تجلس قرب النافذة وقد ألصقت أذنها بالمذياع الجالس بحافتها، تنصت بخشوع لصوت مبحوح يغني بألم، فتتألم معه و من حين إلى حين تتداخل المحطات الإذاعية فيغيب عنها هذا الصوت ، لتلتفت نحو الفتيات و هن يضحكن ، و إن حدث و طلبت إحداهن رأيها في موضوعهن أجابت بابتسامة تفهمن منها أنها ليست معهن على الإطلاق، فيضحكن و يواصلن أحاديثهن المنكّهة بالقصص.

السابعة مساء، توجهت نعيمة و نادية و فاطمة إلى مطعم الإقامة كي تحضرن العشاء، رافقتهن حنان بينما بقيت وفاء بالغرفة، وقفت أمام النافذة تنظر إلى المدينة المزينة بالأضواء، كانت رغم الظلام تبدو رائعة بتلك الأضواء لاسيما بتساقط الأمطار التي بدت كأنها تحكي رواياتها عن كل من قبّلتهم في صمت ترجمته صرخاتها المتوسلة عندما تعانق الأرض ثم تتدحرج على

الرصيف والطرقات والجدران. تمنت وفاء لو أنها استطاعت أن تجوب تلك الطرقات ليلا، تمشي دون توقف و هي تستمع إلى خشخشة الأوراق المترامية على الأرض كلما وطئتها قدماها.

عادت الفتيات بالعشاء لإكمال طهيه في ذلك المنزل الصغير لأن أكل المطاعم الجامعية غالبا ما لا يكون لذيذا إلا بعد أن تضاف إليه بعض التعديلات والبهارات ليصير أقرب منه إلى الأكل بالمنزل.

مرّ الوقت سريعا، بعد أن انفضّت مائدة العشاء استعدت الفتيات لحضور حفل بالإقامة، ارتدين معاطفهن وخرجن ، تسبقهن فوضاهن، مشين مثنى مثنى نعيمة وحنان في المقدمة، بعدهما نادية ومنصورية، ثم وفاء التي كانت تمسك بيد فاطمة وتستمع لحديثها الرقيق. لا زالت زخات المطر تقبّل الحشائش و الأشجار لتأسر قلب وفاء دون أن تجد سببا لتعلقها الكبير بها، ربما لأن الأمطار تبكي مثلها في صمت وهدوء دون أن تشتكي لأحد.

دخلن القاعة الواسعة المليئة بالأضواء الملوّنة الخافتة، المتخمة بالفتيات الشابات اللواتي كن يرقصن على موسيقى

الرّاي الجزائري فتتمايل أجسادهن و تغيب عقولهن حدّ الإغماء وشاركن الرقص والغناء لساعات.

شعرت الفتيات بالنعاس فعدن لدفء الغرفة بينما خرجت وفاء وفاطمة إلى الساحة التي هدهدها صوت زخات المطر، تحدثتا في مواضيع مختلفة، عن الحياة العاطفية، الاجتماعية، النفسية و غيرها إلى أن أحستا بالبرد يطارد جلستهما تحت شجرة اللوز حملتا أحلامهما و صعدتا الغرفة. فاطمة من التعب نامت سريعا، كانت منصورية قد وضّبت لها فراشها كي لا تحدث ضجة عند عودتها متأخرة كعادتها، بينما اتجهت وفاء إلى الغرفة المجاورة التي اتخذتها الفتيات للمراجعة، سحبت مذكرتها وقصص والدتها السعدية التي حكتها عن جارتها جمعة لا تزال تملأ روحها وكيانها، تتذكر كيف كانت والدتها تمسح بطرف كمها دموع ألم امتزج شوقا وحرقة.فدمعت عين وفاء وراحت تواصل كتابة الرواية .

.....

(4)

مضت سريعا أيام استراحتها و أنسها بين أهلها، مرة عند خالاتها و أخرى عماتها، نسيت زوجها، نسيت أهله، نسيت والدته، استأنست فقط بتلك السّعادة المؤقّتة التّي اشتاقتها حدّ الوجع حتى فاجأتها والدتها ذات صباح قائلة:

-"جمعة، لقد أتى زوجك لاصطحابك".

شيء ما انكسر داخلها تلك اللحظة ، و هوى من مكان سحيق، كيف نسيت لأيام أنها متزوجة وأنها تركت خلفها رجلا تمنّته و تمنّاها فما عادا يريان إلا خنجرا واحدا يذبحهما، أتراه الألم يغيّر قلوبنا فننسى أو نتناسى لفترة علاقة ما مهما كانت رابطتها قوية؟.

"لن أعود"... هو ذاك ما حدّثت به نفسها سرّا، و"سأطلب الطلاق" جهارا لأهلها ردّدتها، غير أنها لم تنطق بشيء، ارتدت شالا غطّى شعرها، توجّهت إلى غرفة الضيوف، كان هناك يبتسم في حياء مادّا يد الرّجاء إليها، في عينيه بريق حنين، عانقت شوقه، آلمها اعتذاره طالبا عودتها، فقبلت.

كان وجهها مضيئا، بدا أنها استعادت عافيتها وعاودها الاهتمام بنفسها كما كانت تفعل من قبل، تستعدّ هي و أختها للذّهاب إلى الحمّام كل أسبوع فترى الحقيبة جاهزة ليلا ما إن يطلع النهار حتى تكونا مع المستفتحين له، جمعة لم تعرف يوما سرّ ربط "السُّترة"[1] على الرقبة بينما كانت بعض النسوة يكتفين بشدّها بالحاشية، هي تتبع فقط ما كانت والدتها تأمرها به، بعدما تزوّجت علمت أنّ ربط السترة على الرقبة إنما يكون للفتاة غير المتزوجة والمشدودة بالحاشية للمتزوّجة، حينها وجدت تفسيرا لنظرات العجائز في الحمّام، لقد كنّ ينتقين المقاسات المناسبة لأبنائهن دون لجوئهن إلى السؤال عن الفتاة المتزوجة من غيرها، وحدها طريقة ربط السترة تكفي دليلا هناك.

عادت جمعة مع زوجها، تجاهلت الاستقبال البارد الذي قوبلت به، حاول زوجها إخفاء ذلك كلّه، بأن اشترى لها قارورة عطر لم تتعطّر بها يوما، خوفا أن تنفذ، تكتفي بفتحها واستنشاق الرائحة المنبعثة من فتحتها، كانت أجمل ما أهداها مذ عرفته.

[1] قطعة قماش تُلف من الكتفين إلى أعلى الركبة قليلا قبل الولوج داخل عمق الحمام بغرفة الغسيل.

نظام المنزل لم يتغيّر، سيّدته ربطت جأشها وعاودت من جديد في محاولة للثّأر منها على تطاولها مثلما اعتبرته موهمة نفسها أنها إن لم تفعل فعلت جمعة. بينما اقتنعت جمعة أن لا أحد لها بعد زواجها غير زوجها سندا و ظلا فحاولت أن تتحاشاها لتعيش معه بسلام.

شمس يوم جديد أطلّت بفرح على سلسلة جبال عنتر، جمعة بهدوء تغلق باب الغرفة، تتذكّر أن زوجها غادر باكرا اليوم في رحلة بحث عن الكمأة رفقة ابن عمّه، غابت ابتسامته التي اعتادتها هذا الصباح، فهي لم تنتبه لخروجه، أنهكها التّعب ليلة أمس.

لا أروع من رؤية حبيب يدقّ قلب الفرح صباحا فقط ليهديك قُبلة، و شوق كقطر النّدى يبلّل قلبك بالرغبة في حبّ شخص يستحقّ.

سيغيب لأيّام يجتهد فيها عن كتمان شوقه لجمعة، وحدها تدرك مثله. تواسي نفسها بجمع بقايا ملابسه التّي ستغسلها بعدما تنهي أشغال البيت، وكما اعتادت تدخل المطبخ

الذي صار سجنا كتم أنفاس رغبتها، فلا هي ستطهو لزوجها ما تريد ، و لا هي يوما استطاعت أن تفطر كما الأزواج معا لوحدهما، تطعمه فيرتدّ بين يديها طفلا بريئا.

دوما تحسّ أن عينا ترقبها عن كثب، تمنعها حتى من النظر إلى زوجها بحبّ كلما احتاجت له زادا.

(5)

بطنها قد بدأ يظهر فوق عباءتها ككرة صغيرة، كانت هي تسعد به يكبر يوما بعد يوم. بينما زوجها راح مبكّرا ينتقي أجمل الأسماء للذّكور و الإناث على حدّ سواء، كلّما هجع اللّيل عانق فرحها، تحسّس بطنها وفي حنوّ قال لها:

" أحسّ أنني سأبكي ما إن أرى طفلنا لأوّل مرّة بين يديّ، لا أعرف لماذا و لكنّني أشعر بتلك اللّحظة كأنّها تمرّ أمامي الآن، سأحمله بين يديّ و أُسمعه الآذان، سيغير حياتنا يا جمعة ".

و على أحلامهما البريئة يغفوان في فرح على بساط أرض لم تستوعب بعد كلّ ذاك الفرح.

يضيع الحرف من بين شفتيها لفرحة طفل سيأتي، سيحمل اسمه و يربط عالميهما بكلّ الحبّ الذي تبادلاه خلسة حتّى قبل أن يتزوّجا.

صيف حارق لا يطاق، و عطش رمضان بمنطقة صحراوية لا يحتمل، حاولت تخفيف ذلك مرة بتبليل شعرها وأخرى بغطس فولارتها بالماء و وضعها على رأسها. كانت الشمس

تنحدر نحو المغيب، و وقت آذان المغرب يدنو، و كما اعتادت جمعة في مثل هذا الوقت بدأت ترتّب أواني الإفطار إذ بحماتها ترمي دلاء الماء بالغرف زاعمة أنها متّسخة. بدا واضحا استغراب جمعة .. فالمغرب على وشك الآذان، و حتما لن يكون هناك وقت لما طلبت، اعتذرت قالت إنّ عليها وضع الأواني الآن و ستنظّفها بعد الإفطار، لكنّ العجوز ألحّت وبدأ سيل اللّعنات :

-" لم تعلّمك والدتك شيئا، مثلك مثلها قليلات أصل وواجب ".

كان الدّم يغلي في عروق جمعة و العجوز تتمادى في اللّعنات، قدر الحريرة على النّار يغلي، جمعة تقف أمامه ، ابنها ببطنها بعنف يتحرّك و قلبها بشدّة يخفق، دون أن تشعر، بكلّ قوّتها حملت القدر ساخنا بين يديها، لم تستشعر حرارته، رمته على صدر العجوز، وكانت الكارثة.

آذان المغرب .. الجميع بالمستشفى مع العجوز، وحده زوجها معها،ممسكا يدها و هي ممدّدة على الفراش تصرخ، كان الألم يزداد أسفل بطنها، لا يمكن أن يولد الطفل الآن فجنين الستّة أشهر لن يعيش لا محالة، قرب زوجها تقف جارتها

عائشة، تسعفها بما تعرف. بعد لحظات هدأ الألم توجّه الزّوج عند أمه، أشاحت بوجهها عنه، لم تكلّمه، نطقت أخته الكبرى:

-" الله لا تربحك .. لا أنت و لا زوجتك، لم تحضر لنا سوى الهمّ و وجع الرأس".

محمد لا يعرف ما يقول، يطأطئ رأسه في ذهول، ينسلّ في خجل تاركا لعنات والدته التي نطقت بعد خروجه، لم يسمع منها سوى تهديدات تقول إنها ستتبرّأ منه إن أبقاها على ذمّته ولن يصبح ابنها أبدا، كلمات ارتجف لها كيانه وسوّدت له كل ما كان أمامه، لم يعد يفكّر في شيء، تلك الكلمات سيطرت على عقله إن كان بقي له عقل، هو يحبّ زوجته حتى قبل أن يتزوّجها و في الوقت نفسه لا يجرؤ على رفض طلب لوالدته خصوصا وأنها تهدّده الآن بأعظم شيء، أن تتبرّأ منه أمام القبيلة كلّها، فتح باب السّياج المحيط بقطعة أرضه الفلاحية، كان قطيع الغنم ينتشر في المساحة الخضراء يستعدّ للسّكينة، لحقه كلبه يهزّ ذيله، يدور عليه كأنّما يشاركه حزنا و همّا، لم يلتفت محمد و لا حكّ خفيفا على رأسه كما عوّده، واصل سيره باتّجاه النخلة التي تحبّها جمعة و تستظلّ بها كلّما زارت المزرعة، وجهه محتقن،

عقله مغيّب تماما في ظلمات الغضب، و عيناه بارزتان كأنّما كان يتوعّد بشيء ما، فكّ حبل الدّلو المشدود بالبئر، علّقه على جدع النخلة، صور كثيرة تراءت له: جمعة عروس تزفّ إليه ، جمعة تحضنه بزهو، تقبّل جبينه ، وجهها الباسم حين يهمس لها قرب النّخلة على ضوء قمر صيف قائظ، أصابعه المشبوكة بأصابعها، دمعها الحارق و كفّه على خدّها بغضب مرسومة، صياح والدته و هي توجّه الاتهام لجمعة، ثم صور والدته و هي تهدّد إن لم يطلّق زوجته ستغضب عليه وتتبرّأ منه، كيف سيتحمّل غضبها وهي أوّل من رأت عيناه في هذه الدنيا ؟ من رعت طفولته، من أخذت بيده حين كان ضعيفا، من ربّتت على كتفه كلّ ليلة قبل أن ينام ليحسّ بكلّ أمان الكون، هو يعلم أنّ الجنة تحت أقدام الأمّهات و أنّ أولى الوصايا " أمّك ثم أمّك ثم أمّك "، و يعلم أيضا أنّ زوجته تعني له كلّ النور الذي يبصر، والفرحة التي ينتظر، حبّه الذي رسمه مذ رآها لأوّل مرة تزور عمّتها هناك، و زوجه الحنون التي ترمّم انكساراته كلّما أخفى رأسه بصدرها يشكوها حزنا، من حبّها تصنع له ترياقا لجراحه وآلامه فينساها كلّها كأن لم تكن، صورها و صور أمّه يغسلهما الضّباب، صارتا سرابا.... ها قد غابت الصّور...

صباح الجمعة، انتشر الخبر، بكى من بكى و لعن النّساء من لعن، والدته شُلّت، زوجها تدهورت صحته بعد ذلك، وجمعة رحلت وابنها ببطنها للصحراء تدفن فيها حزنها و تحفظ لزوجها من المحبّة تذكارا لا يغيب نوره. بعد ثلاث سنوات كان المنزل الذّي عاشت فيه أيّام فرحها و حزنها قد فرغ من كل شيء إلا من التّذكار، بحث عنها ابن عمّ زوجها ليقول لها إنّ المنزل شرعا صار لها بعدما كان مسجّلا باسم زوجها، و يحقّ لها التّصرّف فيه.

(6)

" إذا تفاهمت العجوز و الكنّة، إبليس يدخل الجنة "

"قالوها ناس زمان"، تمتمت جمعة و هي تجلس تحت نخلة الحوش الوحيدة، في صيف حرارته تكاد تخنق النّفس، تسترجع سنوات من الجمر بثقل الجبال مضت ، غاب الجميع عن هذا المنزل الذي عمّته الحركة و الفوضى أيّاما، كلّ شيء يذهب، وحده العار و الكلام الجارح يبقى عالقا في الذّاكرة، تدندن أغنية مغربية :

" و اللّي قال كلام العار...

عُمرو ما يحلى ليّا...

عمرو ما يحلى..."

تقلّب حبّات القمح على طبق السّعف المتآكلة أطرافه من كثرة الاستعمال، ترمي كلّ دخيل على تلك الأرض المفروشة رملا ، تتذكّر...تذكر، ثمّ في أسف تقول :

-"رحمك الله يا جدّتي، الآن فقط أدرك معنى ما كنت تردّدين 'عزّ الخيل مرابطها ' و لا مكان سواه".

كانت تُحدّث نَفساً غيّبها المرض، من حين لآخر تهزّ طفلها المتوسّد فخذها، فتنزل دمعة خطّت على جبهته تغريدة قهر. منذ سنوات رحل زوجها عن هذه الدّنيا تاركا جريد النخلة مع الريح يردّد نحيبا ، و غصّة في القلب ما انفكّت أن تآكلت لها خلايا جسدها الذي ما عاد له على المتاعب حمل و لا جلد.

أدارت السعدية لوح الباب الخشبيّ الكبير، دخلت و في يدها صحن البركوكس[1] بالفول و الحمص لجارتها التي اعتادت مجالستها كلّما مالت الشّمس نحو جبال فيفيف، نفضت جمعة بقايا القمح عن عباءتها مزيحة رأس ابنها الذّي استفاق لتوّه ففرك عينيه بيدين علق بهما بقايا رمل الحوش.

-" مساء الخير جارتي جمعة ، بركوكس ليلة العام، يدخل عليكم بالربح و الخير إن شاء الله "، تقول السعدية و هي تضع صحن البركوكس من على رأسها بيد، بالأخرى تلاطف خد "حمو" الذي تبسّم دون شعور .

[1] كسكس لكن بحبات غليظة.

-"الله يخلف عليك يا أختي". ردّت و هي تلتقط الصّحن من الأرض ، تدخله المطبخ قريبا من الفرن الطيني ليحتفظ بحرارته . قامت السعدية و من ركن الحوش حملت بقايا عرجون تمر يابس شطبت به الأرضية، كما تفعل غالبا، بسطت الحصيرة المطوية جانبا على الأرض و أجلست حمّو بحجرها، بينما جمعة كانت قد حضّرت سينية الشاي تدلت وريقات النعناع الخضراء من أكبر كأس فيها تلامس حافتها، تجلس، بصمت تصغي هي وجارتها لموكب عرس يتقدّم على وقع الغايطة باتّجاه شارعهما، تلته طلقات البارود لينطلق معها بكاء الصبي مذعورا، ضمّته السعدية قائلة: " الرجال لا يخافون من صوت البارود يا حمّو ، و أنت رجل البيت ".

على نار المجمر الذي أشعلت فاخِره جمعة غلى إبريق الشاي الصحراوي في هدوء، تتفرقع جمراته لتُنثر على الرمل شظايا كلّما هاج الإبريق لتخمد بعد أن تبرد و قد تبعثرت على الرمل.

تحرّك باب الخشب العتيق بعد طرق خفيف وإذن من جمعة بالدخول، ابنة الجيران تحمل كيسا بطولها تقريبا، قد

أُفرغ من مادته الأصلية و حوى كرات من الصوف المُحَوّل إلى خيوط "الطُّعمة" كأنها طعم للمنسج بها يكبر و يطول، لم يكن الكيس مغلقا تماما فقد دفعته بعض الكرات لتتّسع فوهته قليلا.

-" خالتي جمعة، خالتي جمعة ".

تنهض جمعة، تحاول أن تتعرّف على الفتاة قائلة وعلامات التعجّب لا تزال بادية على محيّاها:

-" أدخلي يا ابنتي، أنا هنا " .

تبادر البنت بعد أن وضعت الكيس على الأرض، معرّفة بنفسها، أنها ابنة مصطفى التاجر بالحي المجاور و أنها بطلب من أمها أوصلت ما تحتاجه جمعة لتصنع لهم زربية صوف مقابل أجر قدّرته بمئتي دينار. حملت جمعة الكيس تعد البنت أنها ستحاول إنهاءه في أقرب وقت.

-" و الله أتى في وقته هذا الرّزق، كنت أفكّر في اقتراض مبلغ من عند خالتي أمّ العيد".

بحثت عن الخيط الذي يربط الكيس لتفتحه، ابنها يحاول الوصول إلى ما فيه، وكما العادة وجدت داخل الكيس بين كرات الصوف قطعة صابون بلدي، رزمة حناء لم تطحن بعد و قالب سكر بطابع مغربي، وضعتها على الحصيرة وراحت تبثّ لصديقتها في حزن خالطه الفرح لذكرى جميلة مضت:

-" كان رحمه الله يشفق عليّ كلما رآني داخل المنسج، يتسلّل خلسة إذا كنت وحدي، يقبل خجلي وبسرعة يخرج، كان طيبا جدا، حنونا، لطالما تمنى العيش في هدوء بعيدا عن المشاكل ، كان كلّما سمع صراخ والدته يعلو من المطبخ واصلا الجيران ، هرب إلى مزرعته الصغيرة غارسا حزنه بأرضها، شاكيا نخلها، عابثا بسنابلها التي تتدلى على صدره حين يفترش بساطها. وحده ذلك المكان شغله عنّا كلّما اشتعل المنزل نارا أوقدتها والدته. رحمك الله يا زوجا لم تسعد بي ولم أسعد بك سوى أشهر على الأصابع تُعدّ ".

كان إذا عاد من المزرعة آخر النهار، أوّل من يراه هو زوجته، تكون قد حضّرت له دلو الماء الفاتر و الملح، يريح داخلها قدماه المتورمتان، و إذ انتصف اللّيل صنعت له من ردائها أسرّة

شوق، و من ضفيرتها وسادة أحلام لا تنتهي إلا بصياح ديك بعد ليلة شبيهة بليالي شهرزاد.

لم يكن هذا المصير ما حلمت به جمعة طوال سنوات قضتها متنقلة بين دراستها بالمتوسطة التي تبعد عن مدينتهم وبين عملها كمُدرّسة قرآن للبنات أيّام العطل بإحدى مساجد بلدتهم، سنوات بدأت فرحتها في أوّل لحظة من دخولها المدرسي ، مذ اصطحبها والدها ترتدي مئزرا بأزهار الربيع ، بدا لها باب المدرسة كبيرا جدا ، و كفّ والدها التي أحكمت قبضة يدها يد حماية ودليل طريق، الأطفال من كل الألوان لبسوا وهم رفقة آبائهم ينظرون بفضول إلى أولئك الذين كانوا يقتادون التلاميذ إلى حجرات الدراسة مشيرين بأيديهم في حركات توجيه. جمعة لم تكن مسجّلة بعد، حالها حال الذين اصطفّوا قربها بانتظار دخول التلاميذ لعل مكانا ما في الأقسام الأولى يكون لها، تذكر لحظة اقترب المدير من الأولياء،ألقى كلمات لم تفهم منها سوى قوله:

- " نعتذر لإخواننا، لم تعد هناك أماكن شاغرة ".

لبرهة سرحت بتلك الأقسام ، متسلّلة بنظرها عبر النوافذ ، تمنّت لو وجدت مكانا هناك فتلك المدرسة الأقرب لمنزلها و كل أبناء الجيران مسجلون فيها.

عاود تثبيت كفها الصغيرة بيده متجها و بقية الأولياء إلى المدرسة الأخرى ، محفظتها ذات القفل الحديدي تكبرها بسنتين أو ثلاث احتضنتها بحبّ كما تحضن دماها الخشبية التي ثبتت يديها و رأسها بعد أن شكّلت عوديْ القصب صليبا غطته ببقايا القماش القديم، تركتها اليوم نائمة في علبتها، اكتفت بالاطمئنان عليها قبل أن تحمل محفظتها و تستعد للخروج بانتظار والدها الذي ابتسم قائلا:

-"ما زال الوقت مبكرا يا ابنتي ".

ردّت والدتها و هي تضع قبلة ود على خدها:

-"قولي لوالدك :دْجاج الرَّحلة يْبَات مكتّف ".

ضحك، و في فخر قال:

-"ستغدو ابنتي طبيبة في المستقبل تداوي أباها و أفخر بها أمام الجميع".

بدمع تقول جمعة للسعدية التي تعرف كلّ ماضيها:

-"إيــه والدي...ما أشد عذابي و غبني و خيبتي كلّما تذكّرت حلمك و فخرك بي".

تربّع السعدية مسندة ظهرها للجدار، تخرج من الكيس الذي أحضرته معها كسكاس سعف لم يكتمل، تستلّ من أحد حوافه اليشْفَة[1] و تكمل نسج الأدوار الأخيرة منه.

-"يجب أن أنهيه هذا المساء، صاحبته تستعجلني لتطهو عليه كسكس "ليلة العام".

ردّت جمعة:

-" ذكرتني بليلة العام، كم كانت رائعة حين كنّا نحتفل بها في منزل عائلتي، كان أبي عند عودته مساء من الأرض يمر على الدكان الوحيد في القرية، ثم يدخل المنزل كأن لا شيء معه،

[1] اليشفة: مقبض أسطواني من الخشب يثبت عليه دبوس من الحديد بحيث يثقب الدور السابق و تدخل السعفة فيه لنسج الدور اللاحق و هكذا...

مباشرة يلج غرفته مزيحا ستار الباب بعجل،لم نكن نلحظ شيئا في يده، فقط قلمونة جلاّبته تبدو منتفخة على غير عادتها، ثم تفرغ بخروجه من الغرفة. و ما كنا نتأكد من شيء. و قبيل المغرب يتصاعد بخار المردود من كسكاس السعف الجديد الذي تحرص أمي على نسج واحد كل سنة خصيصا للمناسبة فتختلط رائحة السعف بالكسكس ويتعطر المطبخ بروائح الإبزار و الفلفل الأسود كلما رفعت أمي الكسكاس عن القدر لتعاود تبليل الطعام بالماء ومرة واحدة بالماء والملح. بعد العشاء يفاجئنا والدي بكيس "المقرقش" وهو خليط من المكسرات والحلويات والتمر و البلوط، يقسّمها حصصا متساوية بحسب عددنا، ثم يختار من العائلة من يغمض عينيه، فيضع والدي يده على أحد تلك الحصص قائلا:

-"نصيب من هذا؟".

يردّ من أغمض عينيه مختارا أول اسم يخطر على باله من أفراد العائلة فتوجّه الحصة إليه. و هكذا إلى أن توزع كل الحصص، في جو بهيج و صور تثير في الذاكرة حنينا لذلك الزمن."

تقاطعها السعدية:

-"سعدك كانت لديك أمّ، من غابت أمه كحالي شكواه لله العزيز".

ترد جمعة،" الله لا يحرم أحد من أمه،من يوم بعدت عنها ما رأيت خيرا، العجوز تحس بابنتها و لا تهزها شعرة على كنتها، كانت أمي تقول: ' اللي تحبّو لبناتك حبّو لبنات الناس'، ما أروعك أمي" تستدرك بينما ابنها بقربها يملأ كأس شايه بحفنات تراب من يده، لم تنتبها إليه.

-" فقدتُ لذة ليلة العام من يوم غادرت منزل أهلي لمنزل زوج أهانني أهله و وصل بأمه أن رمتني بحذائها الجلدي الخشن حين علمت أني اشتهيت حبة طماطم أكلتها مملحة و لم أعلم أن ذلك كان بداية وحم".

.....

(7)

دخلت شهيناز تحمل بطانية وردية وضعتها على سرير وفاء و هي تقول مداعبة

-" أمامنا رحلة يوم غد، لا تسهري كثيرا".

انتبهت إليها وفاء أغلقت مذكرتها تدسّ القلم بالمحفظة وتندسّ بعدها بفراشها الدافئ تفرك أصابع قدميها المتجدمتين دون أن تلفت انتباه شهيناز.

-"شكرا شهيناز، تصبحين على خير".

- " و أنت من أهل الخير، إلى الغد".

ملأ صباح الجمعة الدنيا بأمطاره فخافت الفتيات أن تؤجل الرحلة المنتظرة بفارغ الصبر و رغم هذا كن على استعداد لتسجلن يوما لاشك سيرسخ بالذاكرة. دقت الساعة العاشرة ليدق معها هاتف وفاء.

-"صباح الخير وفاء، سنصل بعد لحظات، هل أنتن مستعدات؟.

-" صباح النور كريم، نحن مستعدات لم يبق إلا أن ننزل و ننتظر قرب باب الإقامة".

دقائق قليلة، وصل الباص الجامعي المُعد للرحلة تسبقه الأهازيج و أصوات الغناء المنبعثة من النوافذ، نزل كريم و صالح تبادلوا التحايا متجهين جميعا نحو باب الحافلة. جلست وفاء بالكرسي الذي حجزه لها كريم و انطلقت الحافلة بهم نحو بلاد الأحلام والأماني الجميلة. تنظر من النافذة و تغسل بعينيها المدينة، بساط كله أخضر لم تعتد عليه، بنايات غريبة التصميم، مزارع، فلاحون منهمكون بأشغالهم لا يهمهم الرائح والغادي.

كان كريم يقف بجوارها يغني و يصفّق، مثل الطفل ملأت وفاء عالمه فراح يرقص طربا للقدر الذي أهداهما فرصة اللقاء، و من حين لحين تسأله عن الأماكن التي تلفت انتباهها فيخبرها بحماس كأنه كان يتوقع منها السؤال.

وصلت الحافلة بعد نصف ساعة لم تتوقف فيها الأغاني و التصفيق و تمايل الطلبة لتتوقف أخيرا بشاطئ سيدي منصور، نزل الجميع و توزعوا كل مع جماعته وأصدقائه، عدا

وفاء التي بقيت واقفة تعقد الدهشة لسانها، كان البحر يبدو لها عظيما شاسعا ولّد لديها شعورا بالخوف والفرح معا، لم يكن أزرقا كما رأته بالكتب المدرسية لكنه كان جميلا و مغريا كما وصفته الروايات، كان صوت الأمواج المتلاطمة شبيها بأنين عاشق حزين، تلهو بأطرافه الريح فيمتد ثم ما يلبث أن يتراجع في خشوع حاملا كل ما صادفه بطريقه.

انتشر الطلبة فرادى وجماعات، تذكرت وفاء شيئا فعادت إلى الحافلة مسرعة، نزعت حذاءها ولبست نعلا بلاستيكيا وردي اللون، ثم نزلت باتجاه كريم الذي كان يشير إليها لتسرع.اختار صالح وشهيناز طريقهما نحو الجبل الصغير المطل على البحر، حنان كانت قد غابت رفقة الفتيات، بينما كريم أمسك بيد وفاء وقال مبتسما:

-" دعينا نشرب من ماء البحر معا، من كل موجة جرعة حتى نتم سبع جرعات، يقال إنّ من شرب من ماء البحر يزول عنه السحر، هكذا سمعت جدتي تقول. من يدري لعل أحدا يحاول تفريقنا ".

بدآ الطقوس معا و كلما تخلف أحدهما و فاتته الموجة اغترف من كف الثاني. قالت وفاء بامتعاض:

-" أممم، إنه مالح جدا". ردّ كريم ضاحكا:

-" و هل انتظرت أن تشربي ماء بحر حلو؟".

انطلقا صوب مرتفع صغير مكنهما من رؤية موجات البحر، لعبا بالرمل، ركضا تحت سماء سيدي منصور، ضحكا وبكيا، و ما استطاعا تعويض سنوات الفراق.

اقتربت الواحدة ، نهض كريم و هو ينفض سرواله من حبات الرمل العالقة به، توجه إلى الحافلة كي يتسلم الغداء، بينما بقيت وفاء جالسة تستمتع بالنوارس و هي تحلق فوق الشاطئ، و بالزبد الذي يخلّفه ارتطام الأمواج بالصخور، حتى فاجأها رجل غريب عن المجموعة يقف غير بعيد عنها و هو ينظر إليها بعينين حاقدتين فخافت وانكمشت بمعطف كريم متمنية عودته بسرعة غير أن وقوف طالبين أمامه كإشارة لطرده جعلها تطمئن و تشعر بالأمان.

عاد سريعا يلوّح لها مبتسما:

-" لم أحضر شيئا، نسيت البطاقة بمعطفي".

نهضت تحمل معطفه و تتوجه معه نحو الحافلة، سارا عبر طريق أخرى غير التي قدما منها، عندما اقتربا كانت الحافلة تبدو بالأسفل، غافلها كريم ممسكا بيدها و نزلا ركضا حتى وصلا. أخذا غداءهما وعادا للمرتفع، بسط معطفه لتجلس عليه وفاء وراح يعد الأكل و يرتبه ثم جلس مقابلا لها مادّا أول لقمة بفمها.

تذكرت وفاء آلة التصوير التي تركتها عند حنان فذهبت و كريم يبحثان عنها، في الطريق مرّا على صالح وشهيناز جالسين بأعلى ربوة،نادى صالح وفاء من ذلك المكان المرتفع بعد أن رمى بتفاحة أخذت تتدحرج و تتمايل حتى وصلت ليدها سليمة:

-"وفاء أمسكي حبة التفاح، إنها في طريقها إليك".

حيّته شاكرة ثم واصلا طريقهما باتجاه حنان. أحضرا آلة التصوي وعادا أدراجهما أين كان صالح وشهيناز ، حاول كريم ووفاء الصعود فحذرهما صالح:

-" كونا حذرين، إنه منحدر سريع الانزلاق".

أمسكها من يدها، و صعدا على مهل، التقطوا صورا هناك ثم نزلوا إلى الشاطئ وقفت وفاء تنظر للبحر و تبعتها شهيناز، بينما صاح بهما كريم فالفتتا إليه:

-"البحر من ورائكما و الحب من أمامكما فأين ستهربان؟".

بدأ أفراد المنظمة الطلابية بتجميع الطلبة وتفقد عددهم من أجل العودة، تثاقلت أقدامهم بالعودة كأنهم لم يكتفوا بتلك اللحظات، لم تحظ وفاء بكرسي هذه المرة فقد سبقوهم إلى الكراسي القليلة، اكتفت بالوقوف أمام النافذة و بجوارها كريم الذي راح يخبرها بأسماء الأماكن التي كانت نافذة الحافلة تلتقطها لهم بسرعة تلك الرياح.

عبرت الحافلة طريق العودة تاركة سيدي منصور وحكايات شاطئ سيدي منصور.

-"وفاء انظري إلى البحر...أمر من هذه الطريق دائما أثناء ذهابي من الإقامة الجامعية إلى الجامعة، سأتذكرك كل يوم عندما أنظر إلى هذه الأمكنة التي تنظرين إليها الآن. كم سيكون هذا محزنا..."

صمت قليلا ثم وجه نظره إليها مستغربا:

-" لماذا تعاقبينني بذكرى الأمكنة؟".

وفاء لم تستطع أن تقول له شيئا، تظاهرت بأنها تقلب بهاتفها كأنما تتفقد رقما أو رسالة حتى بدت لها إقامة الإناث فنزلن و نزل كل واحد رفقة صديقته مودعا، كان الأولاد المتشردون يحومون حول باب الإقامة كأنهم بانتظار فرائسهم، لم يرُق ذلك كريم فطلب منها أن تدخل الإقامة و لا تطيل الوقوف، امتثلت و دخلت مسرعة تجرّ خلفها حزنها، سيكون هذا آخر يوم لها هنا و غدا موعد العودة للحي السعيد الذي ما كانت وحنان تريانه سعيدا أبدا.

نزعت معطفها و ملابسها، ارتدت منامة خضراء ثم استلقت على السرير، لم تستمع لما كانت تقوله الفتيات ولا استطاعت مشاركتهن، مدّت يدها لمحفظتها، استلت مذكرتها لكنها لم تكتب شيئا، اكتفت برسم الأحداث في مخيلتها لتدونها بعد قليل.

.....

(8)

لحركة غير عادية انتبهت جمعة.

-"صوت قطيع الحاج لخضر عائدا على غير عادته باكرا، لم يحن موعد الغروب بعد، أمر ما قد حدث ليعود في مثل هذا الوقت"، قالت جمعة.

التقى صوت القطيع بأصوات الخراف الصغيرة التي -طيلة النهار- لم تذق حليب أمها، قبل ذلك تكون الحاجة فطّومة قد شدّتْ بيدها أحد قدميْ النعجة الخلفية، بالأخرى تضع "القنينة"[1] على الأرض مقابلة لضرعها، تبدأ في حركة سريعة تهز الضرع وتعصر بإصبعها رأسه، فيسيل حليب طازج ساخن وقد علا زبده حواف القنينة، تواصل في حركة سريعة يساعدها ابنها بوداود في الإمساك بالنعاج الواحدة تلو الأخرى، يجرّها إلى حيث تجلس، يشدها من رقبتها فتسكن حركتها و تبدأ الحاجة فطومة بحلب ضرعها، حين تكمل كل النعاج تكون القنينة قد ملئت عن آخرها، تُطلق الخرفان الصغيرة لأمهاتها في تسابق ينتفض له روث الزريبة فتختلط الأصوات و يشتد الظلام. كل ذلك اعتادت

[1] إناء مصنوع من الحلفاء، يوضع فيه الحليب.

جمعة أن تسمعه من وراء الجدار الطيني الذي يفصلها عن منزل الحاج لخضر المتبوع بزريبة آوت الغنم و الدجاج تحت حراسة كلب لا يهدأ إلا بطلوع الفجر.

الحاجة فطوم،امرأة في الخمسين، زوجت ابنها الأكبر من ابنة تاجر من التّل، اسمها ضاوية، كانت صديقة مقربة لجمعة، همٌّ واحد يجمعهما هو الغربة، وصفة اشتركتا فيها هي "الكنّة"، فصارت ضاوية تسرق سويعات لزيارة جمعة كلما سافرت حماتها عند ابنتها الكبرى بإحدى مداشر التل الغربية، وحدها تلك الأيام كانت بمثابة ساعات فرج لها ولزوجها المغلوب على أمره،جمعة أيضا صارت تتحسس خبر سفر الحاجة فطوم كي تغنم بلحظات تسترجع فيها و ضاوية ذكريات أهليهما و عز والديهما.

ضاوية، في صدفة غريبة جمعتها بجمعة، يوم علمت الحاجة فطوم أن ضاوية قد سرقت من حليب الثنينة، في فصل شحّت فيه أضرع الغنم، أخبرت ابنها الأصغر، يكون حماها، لمحته يحمل عصا والده، أدركت أنه يقصدها، دون شعور فتحت الباب و هربت لا تعرف كيف فتحت باب جمعة و لم تكن رأتها، ارتمت تحت قدميها باكية:

-" أرجوك خالتي، أنقذيني".

وراحت تقبّل الأرض بين يديها، دهشت جمعة، ضمتها لصدرها، رفعت رأسها بيدها، كان وجهها شديد البياض مع حمرة طفيفة بالوجنتين، واضح أنها من التل، مسدت على شعرها، و خفيفا مسحت على خدها تزيل دمع قهر و خوف، كان بعصاه قد عاد بعدما رآها تلج منزل جارتهم،أخبر والدته، شدّت على رأسها:

-"فضحتنا مع الجيران بنت ال...".

يومذاك، حكت ضاوية لجمعة كيف أن والدها كان تاجرا من تجار الهضاب العليا، يسافر كل موسم حاملا القمح والصوف والكليلة من أجل المقايضة بما يجده في الصحراء من تمور وعطور، هناك، تعرّف على الحاج لخضر الذي دعاه لمنزله فسأله إن كانت لديه ابنة لابنه، فزوّجه إياها.

كان وقت القيلولة يهدئ ضجيج الأحياء،حر وعطش لا مفر منهما إلا داخل البيوت الطينية الباردة، قرب جرة طينية مطلية بقطران يعطر المكان، جمعة استقبلت جارتها التي تراها

لأول مرة، ضيّفتها كأس لبن مخلوط بالماء و حبات تمر كانت قد أحضرتها لها السعدية من سفرتها لتيميمون.

-" لكن ما سبب هروبك مذعورة من بيت زوجك يا أختي؟".

ترد ضاوية بعد أن تبلع حبة تمر باللبن و تمسح بسبابتها ما علق على شفتيها منه:

-"كنت في المطبخ أعد الغذاء،و لم أكن قد تناولت فطوري لأن الحاجة فطوم كانت بالخارج ومفاتيح خزانة المؤونة معلق بحزامها، فلم أجد البنّ لأعد القهوة لي ولزوجي، حين لمحت الحليب الذي كانت تضعه بالقرب من "الشكوة" التي تمخض بها اللبن اشتهت نفسي الاقتراب منه فبقيت أشرب الجرعة فالأخرى حتى باغتتني بالصراخ ليأتي ابنها مهرولا باتجاهي، لمحته يحمل عصا والده ،أدركت، ففررت".

ترمي حبة تمر أخرى بفمها، قدح اللبن يرتجف بيدها التي لا يزال يسكنها الخوف، تسترسل بحزن:

-"رمضان الماضي، قبل دقائق من آذان المغرب ،كالعادة أخرجت أواني الإفطار في الحوش، و قبل أن أضع باقي الأواني، في حقد ربطتْ حبل الدلو، رمته بالبئر ونادت: " تعالي املئي مَجوَر[1] الغنم بالماء، سيعود القطيع ظمآنا و يدي تؤلمني ".

كانت تعلم أن حملي بسهولة يسقط، أسقطتُ مرتين بسبب التعب، كنت قلت لأمي ذلك فقالت:"أنت مصابة ب " التّابعة" يا ابنتي"،أخذتني عند امرأة طلبت مني إحضار جلد الحرباء اليابس، بصعوبة حصلت عليه، ربطته مع قليل من رمل في قماش أخضر زعمت أنها أحضرته من ولي صالح و رِجل ضبع أفزعتني رؤيتها أول مرة، علّقتُ السُّرة بلباسي الداخلي، حين وقعتْ بين يدي زوجي و كان الظلام، فزع، أسرع لإشعال الإنارة، فتح السُرّة، فذهل، من يومها ما عاد له بفراشي عودة، اتّهمني بالسحر، طلّق النوم معي، فصار يفترش حصيرا قريبا من الباب، يضع على جانبه ملابسه التي يرتديها كل صباح، لا أشعر إلا والباب يصطفق بعد خروجه.

[1] إناء مصنوع من حديد، تورد منه الماشية.

كان دلو الماء ثقيلا، و العطش قد بدأ يجفف حلقي، دقائق و يؤذن المغرب، يداي ترتجفان، جبهتي تتعرق و صدري، بدا لي أن ربي سيغفر لي لأنه يدرك حالي، حرّكت الماء في الدلو بيدي، اغترفت ما هجّعتُ به صهد وجهي، زاد عطشي، الشيطان وسوس لي، قربت كفي المملوءة ماء من فمي، دون أن أنتبه، شربت، الله يغفر لي ذنبي، و.."، قاطعها حمّو يتسلّق ظهرها ممسكا رقبتها في فرح، جذبته مبتسمة، أدارته لحجرها و قبّلته بينما جمعة سارعت تحمله من ذراعه:

-"دع خالتك ضاوية تستريح يا عزيزي".

-"ليت طفلي الأول سقط بسبب التعب لا الغبن، وحدها الحاجة صليحة حماتي وأنا نعلم"، تصمت جمعة، تستحثها ضاوية :

-"أليس حمّو حملك الأول؟".

-"كلا، فقد حبلت قبله طفلا، كانت الأرض لا تسعني من الفرح، و كنت أبصم عليه بأصابع أملي أنه سينسيني كل ألم وقهر. في خامس شهر، بينما كنت أرتب الفراش وأعيده بعد حفل

اختتان ابن صهري الذي لم يكن يسكن معنا، و من أجل الحفاظ على التقاليد جرت المراسم عند منزل الوالد، يومذاك دعت حماتي جلّ نساء الحي، فرشت لهن كل الزرابي التي لم نرها مبسوطة من قبل، كانت مكدّسة في غرفتها، مغطاة بقماش مرقوم، تلك أول مرة أراها و هي تضعها في باحة المنزل، طالبة مني بسطها في تصفيف يسمح للنساء بالجلوس خمسة خمسة في كل طاولة، مع أول خيوط الشمس وصلت "البندارة"[1]بختة، تتأبط دفّها الذي أخفاه حايك المرمّة، تمسك طرفاه تحت ذقنها وهي تبسمل و تحوقل و تدعو بالتسهيل، استقبلتها حماتي بترحيب وكأس حليب :

-"مرحبا بلالاّ بختة الشريفة بنت الشرفاء".

أجلستها بمكان يليق بها، بينما راحت تعدل لحفيدها عباءته البيضاء ، تتحسس ربطة الفأل على قدمه، ذلك الخيط الذي جلبته أثناء زيارتها لضريح أحد الأولياء الصالحين بالصحراء، يشد عند نهايته سرّة من الحرمل و الفاسوخ و حجر أم الناس، معتقدة أنها ستحميه من العين و الحسد، كان الطاهر

[1] التي تضرب على البندير أو الدّف.

مبهورا بلون الحناء على كفه، وبصحن البيض المسلوق الموضوع بحجره، تحسس سرواله، لم يجده، اكتفى أن جذب طرف العباءة ليخفي ما بدا من فخذيه.

أقبلت النساء في ذلك الصباح تلبسن الفرح. رائحة طيبهن تسبقهن. ارتفعت أصواتهن بالصلاة على الرسول، ضربت الطبول، جدّته تحضر طبق الحناء مخلوطة بماء الورد و السكر للفأل الحسن، تحلقن حول الطاهر، بطلب منها مدّ يده فعلت الزغاريد.

مضطربا وصل والده مع "الطهّار" الرجل الذي سيتولى ختن ابنه، أسرعت قريبته تهمس في أذن الحاجة صليحة ، ففهمت. بهدوء قبّلت الطاهر، سحبته من يده لا تقوى على حمل طفل في الخامسة، قامت خالته من بين النسوة حملته، ارتفع صوت الدف أكثر، علت الزغاريد و كلما علا صراخ الطفل علت أصواتهن بالمديح و الغناء.

في المساء هدأ المنزل، وحدي كنت أعيد كل شيء إلى مكانه في حركة بطيئة، دون أن أنتبه عثرت على نعل حماتي المقلوب

قرب عتبة غرفتها، سقطتُ، كانت تكتحل و ترى عينيها بمرآة يدها، استدارت:

-"العمى، أين عيناك؟".

لم أقف بقيت عند العتبة أتحسس بطني الذي شعرت باهتزازه ، شيء ما تغير من مكانه، وقفت منحنية أتألم و هي ترقبني بشماتة كأنما ذلك ما تمنت، قالت معيدة المرود [1] إلى مكانه :

-" حين كنت في سنّك كنت حملت ثقل الجمال ، نساء آخر زمن".

لم أقل شيئا ، في صمت تألمت. لزمت غرفتي حتى عاد زوجي أخبرته أنني أعاني من نزيف منذ ساعات ، ووضع الجنين لا يبشر بخير، لحظات و تدخل قابلة القرية، رغم كبر سنها وبدانتها لا تزال تحافظ على خفتها، تمددتُ متتبعة إرشاداتها، بلا وسادة ، تحسستْ بطني، دلّكته بزيت الزيتون من الأسفل إلى الأعلى و هي تقول : " وضعه ليس جيدا ، لقد نزل عن مكانه

[1] العود الذي يُكتحل به مصنوع من نبات الدفلى.

الصحيح يا ابنتي ، إنه مرشوف جهة اليمين " ، رفعتْ قدميْ للأعلى تلامسان صدرها ، جذبتهما إليها حتى ارتفع أسفل ظهري قليلا ثم راحت تحركهما يمينا وشمالا حتى أحسّت اعتدالا ، بعدها أمسكتني و قد وضعت قدميْ على الأرض ومن يدي ساعدتني على النهوض صدري لصدرها، أدارتني بحيث صار ظهري لبطنها، بفولارة حزمت أسفل البطن و هي توصي الحاجة صليحة التي وقفت بمحاذاتها :

-" إذا لم يتوقف النزيف لا بد من أخذها للمستشفى " ، وكذلك أوصت زوجي الذي اصفرّ وجهه بعدما طلبتْ منه والدته اصطحابنا إلى المستشفى. أحسست فرحتي دفنت هناك ".

(9)

ضاوية كانت قد أنهت حبات التمر و مسحت يدها بالمنديل المبلل قربها :

-" أتعلمين ؟ أمي تحب كنتها و تعاملها كابنتها تماما، و كثيرا ما كانت تسمع بكاء حفيدتها ليلا فتدق باب غرفة أخي في حياء، تحمل حفيدتها على ظهرها تشدها بقماش وثيق و هي تهز و تدور تاركة أخي وزوجته ينامان بهدوء ، أمّا زوجة جدي فكانت تحب حتى ضرّتها التي هي جدتي ، الضُّرة التي يقولون عنها مُرّة ، فما بالك إن كانت كنة، كنا نسمع عن الحماة هنا و كيف أنها تدفن الحياة بكنتها ، و ولدها أيضا ، فلم نصدق، حتى أتيت ، و بعيني رأيت ".

-" حتى الحماة حظوظ يا ضاوية ، و هل عاشت زوجة جدك مع جدتك في نفس المنزل ؟ ".

-" حكت والدتي عن جدتي قالت : كنت في العاشرة حين أبصرت والدي يخرج من غرفة الضيوف رفقة رجل في سِنّه تقريبا يرتدي برنسا أزرق و عمامة صفراء ، كان يرمقني بنظرات

غريبة و أبي يكلمه كأنما عني، حين اقتربا قال : هذه هي ابنتي بختة ، شهر واحد إن شاء الله و تكون في منزلك . لم يزد أن ابتسم لي دونما اهتمام بصديقتي التي كانت تشاركني لعبة " القريدة "[1] رامية الحصى في محاولة لالتقاطه مثلما كنت أنا قد التقطت له صورة ببرنسه ارتسمت على ذاكرتي كوشم . لم أفهم حينها شيئا ، و لم أحاول، فقط واصلت اللعب .

بعد أيام وجدتُني محاطة بنسوة حرصن على تزييني وتطييبي، و عند المغرب أوصلنني إلى منزل استقبلتني فيه من بين الحاضرات امرأة تشبه أمي ، تزينت هي الأخرى ، أحسست ألماً ما ارتسم بعينيها، فهمتُ من النساء حولي فيما بعد أنها تكون ضُرّتي ، وأنني الزوجة الثانية للرجل نفسه الذي زارنا قبل شهر ببرنسه الأزرق و عمامته الصفراء و بسر خفي عرفه وحده آنذاك، رمقني.

كل شيء تغير، صرت زوجة و أنا لم أفهم بعد معنى الزواج، كثيرا ما كنت أشعر بتعب، فأنام قرب الموقد قبل أن أنهي إعداد العشاء ، تحملني ضرتي إلى فراشي ، تغطيني .

[1] لعبة أساسها حجارة صغيرة، تختص بها الفتيات غالبا.

كنت أحسها ترى طفولتي المحرومة و أحلامي البريئة فتشفق عليّ و ترثي حالي ولكنها أبدا لم تبح لي .

ما أحسست يوما أنها ضرتي و لا أن هناك ما يمكنه أن يجعلنا نحقد على بعض ، فقد رحل ذو البرنس الأزرق تاركا شبابي للهرم و للضياع و طفلاي لليُتم و الشقاء ".

قالت الضاوية ثم نهضت نافضة غبار الذكريات، طلبت سجادا للصلاة أحضرت لها جمعة واحدا من صنع جلد الخروف، بسطته لها باتجاه القبلة و راحت ترجع طبق التمر واللبن إلى المطبخ يتبعها حَمّو طالبا حبة تمر، جاذبا طرف ثوبها كأنما لينبهها ، ابتسمت، مدت له من كيس التمر بضع حبات ملأت كفه الصغيرة ، قالت :

-" كل يا ابني التمر صدقة خالتك السعدية".

(10)

في حياء تدق الباب ، أذنت لها جمعة، تغير وجه ضاوية، انتفضت من مكانها تحاول الاعتذار بكلمات غير مفهومة، قطعتها الحاجة فطوم ، تُربّت على كتفها:

-" لا تخافي لم يكن ينوي ضربك ، فقط استعجلت يا ابنتي".

تتوجه إلى جمعة :

-" أعذرينا يا كنّة الحاجة صليحة ،أقلقناك في هذا الوقت ".

تبتسم في محاولة منها لتلطيف الجو: " كنّتي هربت مثل نعيمة بنت المدينة " ، تفرّست ملامح جمعة التي بدت و كأنها تستفسر عن نعيمة تلك حين قطبت حاجبها، ثم أضافت بعد أن جلست مسندة ظهرها لجدع النحلة تحاول التقاط أنفاسها:

-" ألا تعرفينها؟ ذكرها على كل لسان". ثم و هي توجه نظرها لجمعة:

-"أنا أيضا لا أعرفها، لكن سمعت من أمي رحمها الله عن فتاة كانت تسكن بالجوار، ضُرب بها المثل في الحسن و الجمال حتى بلغ خبرها شاعر القبيلة، فحايل راعي والدها ليراها عند الساقية و قد رفعت عنها ثوبها لما أظهر مفاتنها ، فقال فيها شعرا حفظته كل نساء القبيلة و رجالها، بلغ ذلك والدها فعرضها على أول تاجر مرّ براحلته على تلك القبيلة، و بين طلوع شمس وغروبها وجدتْ نفسها أسيرة بخيمته تشاركها فيه امرأتان تحكمهما والدته العجوز التي ما لبثت أن ألحقتها بهن و هي توزع المهام كأنما توزع حصص طعام، لم تقبل نعيمة ذلك ، كانت تنتظر سكون الليل، لتتسلّل من فتحة الخيمة بحثا عن حياة لا تشبه تلك، ليدركها زوجها ممسكا ذراعها كأنما سيكسره، محدقا بعينين حادتين ينعكس بريق نور القمر عليهما و قد تدلت عمامته على كتفه ،و ما تابت نعيمة، كل ليلة تعاود الكرّة.

عاد منهكا ذات صيف حارق بعد جهد حصاد، أدرك أنه إذا نام لن ينتبه لنعيمة، بعد أن تأكد من نومها ربط رجلها بعمود الخيمة، استفاقت، على عجل هربت فهوت الخيمة.

من شعرها جرّتها حماتها بغضب و على بوغة الموقد ملّته فشان بريقه و تقصفت أطرافه"، قالت الحاجة فطوم ذلك ثم ابتسمت بينما جمعة عضت على شفتها السفلى و لحال نعيمة تلك تأسّفت.

ضاوية لا تصدق كلام الحاجة فطوم، واضح أنها تخفي خلف اعتذارها غيظا، سرعان ما تصبه عليها حين تعودان، أعادت ترتيب "غنّاسها" كما يسمونه، رداء أبيض من قماش رقيق مغربل، تشدّه بخُلاّلة فضية وسط الصدر، فتختفي المفاتن تحته في حياء ظاهر.

منذ ذلك اليوم، صارت جمعة وضاوية صديقتين، تتبادلان الزيارات كلما غابت الحاجة فطوم، و إن تعذّر خروج الضاوية، وضعت أكياس النُّخالة فوق بعض و من فوقها تطل عبر الجدار الطيني الذي لم يرتفع كثيرا على حوش جمعة فتسرقان من الزمن الجميل الغابر قصصا تنسيهما بعضا من شقاء.

(11)

يتغير الزمن، تسقط الأقنعة، وحده التاريخ يسجل تذكارات بعضها للفرح و أخرى للحزن ليس إلا.

بينها و بينه مسافة شوق دفين، يراها، يبتسم في سره، يدرك أنها تفهمه، تحسه غير أن انشغالها بشؤون المنزل واصطباحها على سباب حماتها جعلها أحيانا تتغاضى عن تلك الرسائل، تدرك حاجته و هو أبدا لا يدرك.

مثل طائر حجل ارتجفت بين ذراعيه أول مرة، كان قال لها:

-"جمعة، نبغيك ياسر".

و كما حلم مضى زمن ذلك الحب بعد أن بدّدته المشاكل العائلية قطرة فقطرة، فلا هو عاد يهمس لها و لا هي راعت حاجته، كلما أقبل الليل بأسراره نفضت عنها غبار الحنين موهمة نفسها إنما هو الكبرياء و على وسادة من السعادة خالية، نامت، فاستلقى هو على الحصير يستحضر صور بنات الحي، من كل واحدة شبها منها، يجمعها في ذاكرته المشوهة و على جمر ينام.

كان طيفه على حافة نافذتها يرقب بهدوء بؤسها، تلمحه كحلم فيشيح بوجهه عنها كأن لم يرها تبصره من تلك الفتحة النّدية بماء الجرّة الموضوعة عليها، يراودها حنين خفي وهي تدبدب على كتف ابنها:

"نّي نّي[1] يا مُومّو

حتى يطيب عشانا"

فينام لا يدرك متى سيُطهى هذا العشاء، لعله لن يطهى أبدا.

قريبا منها على فراشه وضعته، و راحت تفتح حقيبتها الحديدية الزرقاء التي أحضرت فيها جهاز عرسها، أزاحت جانبا ملابسها العطرة ببخور من نبتة سرغينة حرّة، بيديها اللتين خط عليهما المنسج خطوطا تعذر عليها إخفاؤها، حملت صورا كانت ملفوفة في قماش حرير أبيض، ما إن رأته بشاربه الأسود الخفيف، و عينيه السوداوين اللّذين أحبتهما، بلباسه العسكري يوم كان يؤدي واجب الخدمة الوطنية بالحدود الجزائرية

[1] نَمْ نَمْ

التونسية و بابتسامته التي عوّدها عليها كل صباح، حتى تهاوى القلب حزنا و ذرف الدمع ملح الألم الدفين، و كما عروس راحت تزيح ما غطى شعرها في فرح خالطه بكاء كأنما ليراها، و قد وخط الشيب شعرها، من جعبة الكحل الخشبية سلّت المرود، اكتحلت، أحست حنينها إليه عاودها، رمت خصلات من شعرها على كتفيها، ارتدت لباس حفلٍ صدره بالجوهر الأبيض قد رُصّع، ثم نهضت حاملة إناء الماء البلاستيكي الفارغ بيد، بالأخرى تضرب على قاعدته، أتبعت صورته بصوتها في غناء خالطه نحيب:

و أنا هايمة[1] كيف الزرزورة

بغيت سعدي لا يبلي بيه شي مرا [2]

و أنا بغيت بنتي تسكن في دار عالية

و إيديها ديما محنية

و أنا هايمة كيف الزرزورة

بغيت سعدي لا يبلي بيه شي مرا

[1] تائهة.
[2] امرأة.

بغيت بنتي تسكن في دار زاوية

و لي جاها ديما تضيفوا

و أنا هايمة كيف الزرزورة

بغيت سعدي لا يبلي بيه شي مرا

و أنا سعد بنتي ما جابوهش[1] النساء

و لا رجالة في فامهم[2]

كاتبة لي هاذ الدرّي فاطمة

يا بنتي ماهوش خاطري

و أنا هايمة كيف الزرزورة

بغيت سعدي لا يبلي بيه شي مرا

غنّت، رقصت، و في الأخير انتحبت، ولدها لم يفهم شيئا، استيقظ على صوت والدته، شاهد رقصاتها كما لم يشاهدها من

[1] لم يحوزوه.
[2] أفواههم.

قبل، و هي تكشف عن شعرها الذي لا يراه إلا حين تدهنه بزيت الزيتون والقرنفل ثم تعقفه لتخفيه تحت الفولارة كما تفعل دائما.

حين يتسع الجرح و يكبر الألم يصغر العقل فلا يعود يفكر في شيء سوى تلك اللحظة التي تملأ كل فراغ فيه.

وعبر مسامات الجلد يتسلل الماضي، يسكن الجسد، يلبسه، فرغت من كل شيء إلا منه، هو الرجل الخالد بحياتها، هي المرأة الوحيدة بعالمه، عانقت جنونه فضم صبرها إليه، فرح بها كما لم يفعل من قبل، شغفته حبا ، فراح يستعجل العودة بالقطيع ليغلق باب غرفته على سر كان لهما وحدهما، سر أرّق تفكير الحاجة صليحة، فكانت كلما عاد بالقطيع باكرا تستوقفه عندها طالبة منه قضاء حاجة من حاجيات المنزل التي لم يكن بالضرورة قضاؤها آنذاك.

إذا رأت كنتها مقبلة على عملها بفرح، خيل إليها أنها إنما تفعل ذلك لتغيضها، فالحاج أحمد لم يكن يبالي بها و لا يعيرها أدنى اهتمام، كانا كلما جلسا على سينية شاي أو قهوة لا يفترقان إلا بشجار يصل آذان الجيران، لسانها السليط و نميمتها

ما كان الحاج أحمد يستسيغهما، منذ ذلك العهد لم يعد يجالسها، و إن أراد شايا أو قهوة طلبه من جمعة تأخذه له بغرفة الضيوف، يحتسيه وحيدا كما الغرباء.

مسكين الحاج أحمد، لا يكف عن التفكير بالزواج من أخرى لولا تذكره أن عمره يحرجه.ذات عشاء طلب من ابنه محمد أن يجالسه على سينية شاي بالنعناع، يحضّره له كما يشتهي، هو يحفظ طقوس تحضيره، على مهل يتركه يغلي على النار، يداعب بيديه وريقات النعناع، أحس كلاما بصدر والده لا يعرف كيف يستحثه على البوح، كان الليل يجر نسائمه الصيفية الحارة، يلاطف جريد النخل فيهتز بهدوء، لا صوت يسمع سوى لصراصير تجمعت بالقرب من البئر، و لا رائحة داعبت أنفيهما تلك اللحظة غير رائحة شاي معطر بالنعناع امتزجت بندى تراب بللته قطرات الماء المتسربة من الدلو المربوطة بالبئر.

تنحنح الحاج أحمد، يرقب ابنه و هو يقلب كؤوس الشاي و قد تضاعف حجم الزبد أعلاها، اعتدل محاولا إسناد الوسادة على الجدار الطيني، ثبتها بظهره، و كأنما لأول مرة بخجل:

-" تعلم يا ابني أن والدتك لا تهتم بشؤوني، و أننا لسنا على وفاق، لذلك أفكر في أن أُعمِّر،أريد امرأة تقوم برعايتي يا ولدي، فأنا بعمر أحتاج فيه لمن يتولى ذلك ".

قال ذلك ثم احتسى جرعة من كأسه كان ابنه قد غرسه بالرمل قربه، ابنه لم يقل شيئا اكتفى بالسمع مطرقا رأسه، ساد صمت طويل قطعه صوت الحاجة صليحة و هي تسب قطا تسلّل إلى المطبخ، ثم تصبّ غضبها على الزمن و الناس في مشهد كأنما ليساند قول الحاج الذي قال:

-"اسمع والدتك، ما فيها غير هذا " و أشار بيده إلى لسانه.

وصل الخبر الحاجة صليحة، محمد لا يخفي عنها شيئا، عوّدته منذ صغره أن يبوح بكل ما لديه كما النساء، بالتفصيل حين كان يذهب عند منزل عمه فلا تترك صغيرة و لا كبيرة إلا عنها سألت، منذ ذلك الحين حفظ أسئلتها فصار يخبرها حتى دون أن تطلب منه ذلك.

استشاطت غضبا، أقسمت، نذرت إنه لن يتزوج إلا على جثتها، لم تترك مشعوذا و لا عرافا إلا قصدته حاملة الهدايا، كل

جمعة تزور ضريح الولي الصالح فتنذر إن هو أعانها على صرف زوجها عن فكرة الزواج ستحضر له وليمة عشر قصاع كسكس بلحم الغنم، ويوم أربعاء ذبحت قربانا له، كانت مشغولة بنفسها وبفضيحتها إن هو تزوج عليها في مثل هذه السن، ماذا سيقول الناس؟.

الحاج أحمد تزوج بعد ذلك بأرملة مات زوجها في شجار سببه خلاف وقع بين بني عرشه و عرش آخر حول قطعة أرض راح ضحيتها زوجها و ابن المدعي أنها أرضه من العرش الآخر.

كان اسمها "زهرة"، عيّرتها الحاجة صليحة في ليلة عرسها و دخولها عروسا على الحاج أحمد بقولها أمام الملأ "شوكة وليست زهرة"، و راحت للولي الذي نذرت له بعشر قصاع كسكس، وقفت أمام سياج الضريح نائحة و هي تقول بصوت مسموع:

-"و الله لن ترى شيئا مما وعدتك به، و الله لن أتصدق لك و لو بحبة كسكس".

استغربت من النسوة اللواتي كن هناك من استغربت وضحكت من ضحكت، صارت بعدها نكتة تذكر في كل مناسبة نذر.

(12)

تحدق السعدية في صمت، تسرح في عالم جمعة الموبوء كعالمها بالغبن و القهر، تعاود لفّ السعفة على أطراف الكسكاس، تقول:

-" قيل إن والدي كان يكنّ كل الود لوالدتي، الله يرحمهما برحمته، ما فكر يوما قط بالزواج من غيرها، أمي أيضا كانت بعشرة رجال، عقل و دين، و رقة قلب، حدثتني جدتي عنها يوما، قالت:

"ما عرف أحد والدتك إلا و أحبها لطيبتها ورجاحة عقلها و صبرها، لها جمال سبحان الخالق، كثيرون من طلبوا يدها، حتى الطبيب حين رآها ذات مرة مرضت فيها طلب يدها من جدك غير أنه رده كما ردّ الآخرين بحجة أنهم غرباء عن عرشه، أو أنهم لا يستحقون مصاهرته، وحده والدك استطاع ذلك، عرف كيف يليّن قلب جدك.

حكت لي جارتنا أنها تعرف أصوله و أجداده، وأنه يكون ابن المنطقة التي تربت فيها، كان والده يتاجر بالغنم، و كلما

اقترب موعد عيد الأضحى شدّا الرحال إلى الصحراء عند الحدود الجزائرية الموريطانية بقرابة مئة رأس غنم، يمكثان فيها ما شاء الله لهما حتى يتمآ البيع فيعودان بخير وفير، سألتها من تقصد بالثاني قالت المجذوب و والده. يروون عنه إنه و في طريق ذهابهما اعترضه قطّاع طرق على الحدود الجزائرية المغربية يهرّبون قطعانا من الغنم باتجاه المغرب، مقابل الملابس الأوروبية المستعملة والتي كانوا يسمونها "الخُردة" طالبوه بنصف القطيع مقابل حياته و والده، تظاهر بالموافقة تاركا ما يزيد عن أربعين رأسا ينقاد نحوهم، لم يبعد غير أمتار حتى استل مسدسه المرخّص انطلقت منه رصاصات أوهمهم بها أن حرس الحدود بالجوار، تركوا كل شيء و هربوا، فاقتاد القطيع المهرّب رفقة قطيعه إلى حيث حرس الحدود، أبلغهم تاركا القطيع المسروق عندهم ثم واصل و والده رحلتهما.

تتنهد السعدية، في حزن تسأل جمعة إن كانت السعدية تذكر ملامح والدها، فتجيب بابتسامة تذكار وفخر:

-" كنت في السابعة حين سافر مع عمي إلى المغرب عابرين قصر الصفيصيفة غربا نحو "إيش المغربية"، غابا مدة شهر كامل

اشتقنا فيها ملامحهما، عند عودتهما بآخر الليل لم يشأ أن يزعجنا والدي، قرر المبيت في حمام بوعلي المفتوح نهارا للمستحمين وليلا للزوار و الغرباء، بينما عمي كان قد واصل سفرته باتجاه خيمته التي يكون وصل إليها صباحا".

تبلع ألما، تصمت كأنما بحثا عن صورة ما ضاعت منها، ثم تقول و قد اغرورقت عيناها:

-"فجر ذاك استفقنا على طرق كاد يقتلع الباب، كنت وإخوتي ننام بالحوش لم نغادر بعد الفراش، أمي أحست خبرا جللا، سارعت برمي لحافها على رأسها، وقفت أنا مذعورة بينما أختي الكبرى لحقت بأمي، وأخي الصغير بصمت بقي جالسا في مكانه.

خلف الباب سألت بصوت مرتجف:

-"من؟".

جاء صوته مثل فاجعة :

"الحاج مصطفى، يدوم الله، الصبر يا أختي ".

لم تزد سوى أن ضربت بكفها صدرها و بمكانها جلست تندب حظها،أختي كانت فتحت الباب، بدمع حار سألت عن مكانه، قال إنه لما نام بالحمام توجه للمسجد فجرا ليصلي لكنه مذ جلس لم يتحرك حسبه نائما، هزّه من كتفه، سقطت دمية كانت بقلمونة جلابته، لا شك هدية لنا، انحنى بعدما تناثرت حبات الحلوى الملونة على الأرض وكيس الفول السوداني الذي أحضره من المغرب.

لم تنتظر أختي رقية أن يكمل كلامه، كانت ركضت نحو المسجد، قبل أن تصل رأت رجالا قرب الباب يكبّرون، ركبتاها خارتا، منذ ذلك اليوم، لم تنطق، رحل عقلها مع والدي تاركة لنا الألم لفراقه كلما أبصرناها بزاوية المنزل تحاول أن تقول لنا كلاما فلا نحن نفهم ما تريد و لا هي تهدأ فتتوقف عن الإيماء والتنهيد.

لسنوات ظلت صورة اليتم بقلبي، تعيش معي، كنت أبصره أنما استدرت، في كل الأماكن، في كل الصور، و أذكر يوم أرسلتني أمي لغرفة المؤونة التي لم تكن بها خيوط كهرباء للإنارة، وحده الضوء المنبعث من العمود الكهربائي للشارع كان كفيلا

بأن نتحسس الأشياء فيها، دخلت، أبصرته بين أكياس القمح، يحمل طبق سعف فارغ، هرعت لأمي، بصدرها بكيت و قد حكيت ما رأيت، قالت تُمسّد بيدها على شعري:

-"والدك يطلب صدقة يا ابنتي، حين يقول الأموات شيئا أو نراهم في الحلم بهيئة ما كذلك هو الحال في الواقع، سأخرج له صدقة صباح الغد إن شاء الله".

عندما استيقظت صباحا كانت قد خبزت العجين وبالزيت ورّقته لتضعه بالخبّاز فتنتشر رائحته التي امتزجت بغلاّية القهوة و الشيح الذي لا يغيب بقهوة الصحراء إلا نادرا، جلست قربها، أسترق النظر لتلك المربعات التي شكلتها في القصعة بانتظام، بانتظار أن تنضج التي قبلها لتضع الواحدة بعد الأخرى، و على الطبق كانت صففت الناضجة، ناولتني واحدة بينما كنت أفرغ القهوة بفنجاني. حين أنهت قطّعتها بيدها تضعها كلها في سلة كبيرة أخرجتُها للشارع فتجمهر عليها أطفال الحي في ازدحام يمدون أيديهم ، و كل من نال نصيبه صاح للبقية :

-"تعالوا، الصدقة عند السعدية"، فيلتحق البقية طلبا للصدقة و هم بعد أخذهم ينصرفون قائلين:

-"صدقة مقبولة إن شاء الله".

ما هي إلا لحظات حتى تفرغ السلة ،أعود إلى والدتي راضية، فتضيفني قطعة خبز أخرى جزاء سمعي و طاعتي.

الله يرحمك يا أبي،كان رحيلك فاجعة و رحيل والدتي بعده بسنتين، فاجعتين".

بكت السعدية، و لبكائها بكت جمعة، وحده حمو استأنس بهديل الحمام على النخلة، باحثا بعينيه عن هذا "القمري" الذي يغني في حزن فهمته جمعة حين رأت نظر ابنها معلقا به، فغنّت:

" مسكين حمامي اللي كان يبركم فالليل

في وكرو هاني طيروه الناس الشينين".

لم تنسَ السعدية صورة والدها الذي كان يبتسم دوما وهو يحضر معه ما يفرح به قلوب أبنائه، و لا وجه والدتها البشوش، ظلت تحتفظ لهما بقلبها بكل الصور التي تذكر، و في خزانتها بأشياء تركاها معطرة برائحتهما، أخرجت من صدرها

منديلا تآكلت أطرافة، شمّته بعمق كأنما تحاول أن تفتش فيه عنها، قالت و هي تمسح به دمعها:

-"ريحة المرحومة لا تفارقني".

ردت جمعة:

-"رحمها الله برحمته الواسعة، كلنا سنرحل يا غالية".....

.....

هنا انتبهت فريال إلى أن الصفحات الأخيرة من مذكرة وفاء ممزقة، أحزنها الأمر، دمعة سقطت على خدها و هي تغلق المذكرة لتعيدها إلى درج المكتب.

ما عادت وفاء تسكن المنزل بعدما تحطمت أحلامها على مسمع ومرآى منها، حين تقدم كريم لطلب يدها فقوبل بالرفض القاطع لأنه لا ينتمي إلى قبيلتها، وبعد أن توفي جدها الحاج موسى تاركا لها فراغا رهيبا، لم تحتمل غيابه فشدّت الرحال إلى قسنطينة و غيرت مكان عملها. قسنطينة أنسب مكان للاحتفاء بالمبدعين، كانت فريال قد عادت من فرنسا بعد أن أمضت

سنوات الدراسة التي منحتها إياها جامعة وهران لتفوقها في دراسة الطّب، لم تجد ابنة عمها وفاء، اكتفت بأن أعادت ترتيب الغرفة التي ستقيم فيها و الصالون، على أن تُترك غرفة وفاء وباقي الغرف في منزل الجد بنظامها الأول دون تغيير.

فريال أحبّت وفاء منذ طفولتهما، عاشت معها معاناتها بداية من وفاة والدتها السعدية لتكفلها جدتها، ثم يتمها مرة أخرى بعد وفاة جدتها لتبقى في منزل جدها الحاج موسى أين كان يسكن أصغر أعمامها وزوجته وأبناؤه، كانت فريال آنذاك تزور منزل جدّها كل جُمعة، تقضي مع وفاء ساعات طوال في سهر و لعب حتى طلوع الفجر، مختبئتين بالغرفة، متظاهرتين بالنوم كلّما مرّ الحاج موسى باتجاه المرحاض ليلا، مارّا على غرفتهما لتشعلا أضواء الهاتف وتكملا السهرة. كان ذلك قبل أن تنجحا في البكالوريا فتلتحق فريال بجامعة وهران بينما اختارت وفاء مدينة الحي السعيد لدراسة الأدب العربي.

استيقظت فريال كعادتها على السادسة صباحا، بلمسة من أناملها الرقيقة انبعث صوت كوكب الشرق من الهاتف، يحتفي بصباح جديد:

"يا صباح الخير يا اللي معانا... يا اللي معانا..

الكروان غنّى و صحّانا..صحّانا.."

أدرات الجزء السفلي لإبريق القهوة المضغوطة "البريس" بعد أن ملأته ماء و عليه وضعت ملعقتي قهوة ثم وضعتها على نار هادئة و راحت تستعد للذهاب إلى العمل. شهر كامل بهذه المدينة كان كفيلا بأن يضمن لها إعادة تنظيم حياتها بعد علاقة فاشلة مع جون الطالب الفرنسي الذي لم يستطع في آخر لحظة السفر معها إلى الجزائر رغم أنها كانت بلاد والدته. فلم تكلمه منذ ذلك اليوم رغم محاولاته الاتصال بها عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي، و لا ردّت على مئات الرسائل التي ملأت بريدها الالكتروني حتى كاد يتقيأ رسائل.

خرجت على السابعة صباحا إلى مستشفى "محمد بوضياف" كان اسم المستشفى يحرك مشاعرها وروحها لتستفيق على ملامح رجل طُبعت صورة اغتياله طبعا بذاكرتها و هي تتذكر تلك الساعات االمشؤومة من صائفة 1992، أين كان والدها يجلس بالغرفة بعد أن رُشّت بماء البئر لتهمد حرارتها، وقد أخذ كرسيا قرّبه للتلفاز وجلس مقابلا له كأنما في خشوع استعدادا

لخطبة رئيس الجمهورية محمد بوضياف الذي تسلم الكرسي والجزائر في أوج غليانها وتَشَتُتِ أبنائها في حروب أهلية، كانت لا تزال تلعب بالرواق آنذاك مع أختها التي تكبرها بسنة، ولم تكن ألعابهما تعدو بضع علب أفرغت من محتوياتها فملأتاها ترابا وأعشابا، كانت تُعد لأختها غداء بنكهة البراءة حتى سمعت والدها قد وقف من مكانه يقترب شيئا فشيئا من التلفاز، يده على فمه بعد أن شهق ثمّ أخذ يكبّر و يضرب كفا بكف قائلا:

-" وصلوا إليه أبناء الحرام...وصلوا...".

أمها أسرعت من المطبخ تمسح يديها بفوطة كانت مربوطة بحزامها، و هي تسأل ماذا جرى. كانت فريال أسرعت و أختها لرؤية ما كان يبث بالتلفاز بعد أن أرعبهما صوت دويّ كأنه في بيتهما، فوالدهما دوما يرفع صوت التلفاز بالنشرات الإخبارية والخطابات السياسية، كانت صورة الرئيس و رأسه ممدّدة على المكتب الذي كان يخطب فيه لشعب أحبّه، و الناس يهرعون إلى أسفل، يخفون رؤوسهم بين الكراسي في هلع بينما وقفت شاهدة على هذا العار كاميرا كان صاحبها قبل قليل يوجّهها يمينا وشمالا ليهرب من الموت هو الآخر تاركا لها التقاط لحظات الخزي الذي

شهده اليوم التاسع و العشرون من شهر جوان عام 1992، قبل أن ينقطع البثّ.

فيما بعد كانت القناة الجزائرية و هي الوحيدة بالتلفاز تبثّ آخر جملة للرئيس قبل أن يظهر رجل ملثّم من خلف الستار الذي وراءه -يبدو كأنه من حراسه- فيرميه بالرّصاص. كان تحدّث عن العلم والإسلام و استشهد على نطق آخر كلمة "الإسلام".

فريال كما جلّ أبناء الوطن لا تزال تذكر تلك الفاجعة وذاك الرجل الذّي لم يتركوا له فرصة تغيير البلاد للأحسن.

مرّت بطريقها على معرض الكتاب بدار الثقافة، كان صاحب المعرض لا يزال يرتّب سلعته كما قال حين رآها تقلّب العناوين:

-" لا تزال هناك سلع لم أعرضها بعد، أخبريني إن احتجت عنوانا محددا و سأبحث عنه".

لم ترقها كلمة "سلعة"، لماذا لا يراها إلا سلعا لا يهمه محتواها بقدر ما يهمه كم ستدرّه عليه من ربح. تجوّلت بين كتب الطبّ التي لم تجد منها إلا النزر القليل، ثم استدارت على اليمين

أين اصطفّت كتب الطبخ بشكل مزعج محتلة مساحات أكبر، هربت بنظرها مستنجدة بالروايات المعروضة بشكل أنيق، رواية "الغريب" ألبير كامو، "نسيان com"أحلام مستغانمي، " كليلة ودمنة" لابن المقفع، "أحببتك أكثر مما ينبغي" لأثير عبد الله النشمي،"ما لم تَحْكِه شهرزاد القبيلة"... استوقفتها الجملة، العنوان يبدو مألوفا، كانت وفاء تتحدث دوما عن القبيلة، حملت بين يديها الكتاب تفحّصت غلافه، سرت رعشة دبّت بجسدها كجيوش نمل و هي تقرأ اسم الكاتب " وفاء محمود" لم تصدّق، قلّبت صفحاته بارتباك و هي في كل مرة تعود للاسم كي تقرأه من جديد، كان البائع لاحظ ارتباكها، قال كأنّما ليزيد دقات قلبها:

-" كاتبة ناشئة من مدينتكم ".

قرأت أوّل سطر بالرواية:

" الله يدخلها بالربح علينا..هذي حمامة زايدة فينا ".

تذكّرت المذكّرة التي وجدتها بغرفة وفاء، انتقلت تقرأ الجمل التي تقع عليها عيناها دون ترتيب، كانت الجمل و الكلمات

نفسها، قلّبت بسرعة تسابق دقات قلبها الصفحات، لتصل حيث توقفت المرة الاخيرة بالصفحة 62، لم تكن الصفحة ممزقة، كانت موجودة، بارتجاف دفعت ثمن الكتاب وخرجت مسرعة نحو سيارتها، لم تعرف كيف أغلقت باب السيارة و لا كيف ركنتها مبتعدة قليلا عن الطريق، كان الكتاب يرقص بيديها المرتجفتين كأنما عثرت على تذكار من عزيز غيّبته الموت و راحت تفتح الكتاب مرة أخرى في الصفحة 62:

"من المنزل المجاور علا صراخ الحاجة فطوم، بدا واضحا أنها تعاتب كنتها، كما أن كنتها ما عادت تلك الفتاة التي استجارت بها أول مرة، تعلمت فنون الرد، فكان السباب متبادلا، " العين بالعين و السن بالسن و البادئ أظلم " قالت جمعة تخبر السعدية.

أضافت: " لم أكن أسمع للضاوية حسّا من قبل أن تأتيني خائفة مذعورة، كانت مطيعة لحماتها، تراعي كل ما يخصها، تهتم حتى بفراشها، لكن الحاجة فطوم الله يهديها كافأتها بكل ما لا يليق و لا يخطر على بال ، مثلما يقول أجدادنا: "أنا بالمغرف لفمّو و هو بالمشهاب لعيني".

كلما اشتد ظلام الليل، تذكرتْ نورا من حبّه قد هداها، وصدرا بكل عاطفة الحنان حواها، هو يعلم خوفها من صوت نباح الكلاب التي غالبا ما تأتي من خلف الجدران قاطعة المسافة ما بين جبال المغرب وصولا إلى مدينتهم، معلنة بداية سهرها، كلما سمعها أحس ارتعاشة جمعة و محاولتها الاختباء داخل الغطاء، أحسّ خوفها، بما وسع صدره يحتويها، يمسّد على شعرها مبتسما دون أن ترى ابتسامته، تكتفي بأن تدنو حتى تستنشق عطره و على أنفاسه بأمان تنام.

تفتّش بين فراشات الربيع التي تنتقل من نوّارة لأخرى بحثا عن عبير ما، كما رائحة براعم شجيرة الرّتم و هي تنتشر بالبوادي، ذكّرها طيبها بعُطل الربيع التي كانت تقضيها عند عمها بوسماحة بالبادية، تلمّها بكفها الصغيرة ثم تخفيها بجيب تنورتها ناسية إياها تجف بهدوء.

(13)

كانت الشمس قد أخذت معها حكايات جمعة والسعدية ، ودّعتهما محتجبة خلف جبال فيفيق، نفضت جمعة لباسها من التراب العالق فيه، تحمل سينية الشاي بعد أن فرغ إبريقها وتطايرت قشور حبّات الفول السوداني عليها. بينما جمعت السعدية بقايا رؤوس السعف التي لم تكن صالحة للنسج و قد أنهت الكسكاس الذي أحضرته، وحده حمّو بقي يلعب بالتراب، يملأ الكأس ثم يفرغه كأنّما يعيد قصة أمه التي فرغت من الفرح.

استأذنت السعدية و بهدوء أغلقت الباب الخشبي خلفها تعدها بلقاء في نفس الموعد من يوم غد، كان قرص الشمس قد غاب، و أصوات القطيع عائدا للزرائب قد علا كما كل مساء.

وحده طرق خفيف على الباب انتبهت له جمعة، فتحت، من خلف الباب عجوز تسأل أصحاب البيت عن منزل الحاج لخضر، بلباقة أجابت جمعة:

-"عذرا خالتي هذا منزل الحاج أحمد، الحاج لخضر بالجوار، الباب البنّي على اليمين".

ردت العجوز:

-"بيت الحاج أحمد، يا حصراه، لما كان بمقامه، من يوم دخلته كنتهم جمعة لم يروا خيرا، لا بارك الله في الكنائن و لا في طلّتهم ".

قالت ذلك و غادرت باتجاه منزل الحاج لخضر، وحدها غصّة ابتلعتها جمعة من خلف الباب و هي تذكر أوّل ترنيمة دخلت بها منزل زوجها و أوّل صورة للفرح :

"الله يدخّلها بالربح علينا...هاذي حمامة زايدة فينا".

EL AMIR
MAISON D'ÉDITION